

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190087

UNIVERSAL
LIBRARY

خَلِيجَةٌ

أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿تَأْيِيفٌ﴾

المصلح الاسلامي الزعيم العربي الشريف السعودي

السيد عبد الحميد الزهير (أ)

بُكِّمَتْ لِحُبِّهَا الْمَارُّ وَتَشْرَبَتْ مِنْ تَرْقِئَةٍ فِيهَا ﴿

﴿وَجُمِعَتْ مِنْهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ ﴿

وَعَقْدُ الطَّبِيعِ مَحْفُوظَةٌ لِادَارَتِهَا

الطبعة الثانية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ

مطبعة النصار بمصر

خَلِيجَاتُ

أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿ تَأْلِيف ﴾

المصلح الاسلامي الزعيم العربي الشهيد السوري

السيد عبد الحميد الزهراوي

﴿ كتبت لمجلة المنار ونشرت متفرقة فيها ﴾

﴿ وجمعت منها في هذا الكتاب ﴾

وحقوق الطبع محفوظة لادارتها

(الطبعة الثانية بمصر سنة ١٣٤٥)

طبعة المنار بمصر

يطلب من شرف الدين واولاده بهندي بازار بمبئي نمبر ٩

مقدمة الطبعة الثانية

✽ للنشر ✽

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقين فلا تخضعن
بالقول فيطعم الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن في
بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلوة وآتين
الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس
أهل البيت ويظهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات
الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيراً * ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين
والمؤمنات والقنتين والقنتت والصدقين والصدقت والصبرين والصبرات
والخشمين والخشمت والمتصدقين والمتصدقات والصميمين والصممت
والحفظيين فروعهم والحفظت والذكرين الله كثيراً والذكرة أعد الله
لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً (سورة الاحزاب: ٣٣-٣٤-٣٥)

ان الاطلاع على سير عظماء البشر من الرجال والنساء، أعظم وسائل التربية
والتهذيب لان مدار رحاها على قطب التماسي والافتداء، فلا شيء يفعل في جميع
الأنفس فعل الاسوة

وقد كثرت في هذه السنين المطبوعات المرية ولكن أكثرها بفسد أخلاق
من يقرأها ويبلبل أفكارهم وآراءهم، وأشدّها إفساداً وبلبالاً تلك القصص الوضعية
التي يسمونها الروايات، وأشدّ قرأها شعفا بها أكثرهم غواية نفس واضطراب فكر
بها وهم الفتيان والفتيات

وقد قصر سلفنا وفضلاء خلفنا في تصنيف القصص والسير التي تصلح للمطالعة بأسلوبها السهل المشوق وموضوعاتها النافسة المقومة للاخلاق المنورة للافكار ، ولعل هذه السيرة الشريفة لتلك السيدة الجليلة التي اشتهرت في عهد الجاهلية بلقب « الطاهرة » وكانت في عصر الاسلام أولى أنصاره، ومصاييح أنواره ، من افضل ما كتب في هذا الشأن وأتقنه

وأما الكاتب لها فهو السيد عبد الحميد الزهراوي احد افراد التابعين ، وأفذاذ المصلحين ، وشهداء الوطنيين السوريين ، وعلمائهم المستقلين ، وكتابهم المجيد ، قدس الله روحه ، وسقى صيب الرحمة الواسعة ضريحه ، وانني لا اعرف احدا من فضلاء هذا العصر أجمع الذين عرفوه من جميع طبقات الناس وشعوبهم وملهم على الاعجاب بأخلاقه وشأنه كما أجمعوا عليه

ولعل هذه السيرة أفصح ما كتبه عبارة ، وأوضحها اشارة ، وأظهرها مغزى ومراداً ، فهو قد جلا فيها المعاني الدقيقة من اصول العقائد والايان بالقيب في معارض من البيان ، تفوق في جمالها معارض عرائس العوان ،

وليست السيرة كلها في خديجة نفسها فان المروي في شأنها قليل إذ كانت في عصر الامية الجاهلية وعهد ضعف الاسلام في أول نشأته ، وإعاصرت سيرتها كتاباً حافلاً بخلصة تاريخية أدبية استنبطها الكاتب من تاريخ قريش في عاصمتهم (أم القرى) وما كان من ارتقائهم الأدبي واللغوي والاجتماعي والتجاري والسياسي الذي استعدوا به لظهور الاسلام فيهم - وبخلصة أخرى خير منها في حكمة الأخلاق والفضائل وسلامة الفطرة والحضارة - وبخلصة ثالثة أعلى منها في معنى الروح والوحي وعبادة الله تعالى وتكريمه للبشر بافاضته ما شاء من العلم على من اختص برحمته منهم لاجل هدايتهم وإعدادهم لحياة اسمى من حياة الدنيا وخير وابقى كل خلاصة من هذه الثلاث مقصودة للكاتب رحمه الله بذاتها ، فقد كان يريد أن يذكر النابتة العربية بمجد قومها إذ رآها تتعلم في مدارس الترك ومدارس الافرنج ولم يكن للتاريخ العربي نصيب من هذه ولا من تلك بل كان لكل منهما عرض سياسي في طمس تاريخ العرب وتاريخ الاسلام معاً، وإنما كان مجد العرب الاعظم بالاسلام ومجد الاسلام الصحيح بالعرب

وكان يتوخى تقوية الروح الاسلامي في كل نابتة اسلامية لما يراه من تشيئة المدارس

العصرية لهم على الافكار المادية، ومعاداة الفضائل الروحية، وإضفاف الجامعة الاسلامية، وكان له وراء هذا وذاك غرض آخر ذكره في اهدائه للسيرة الى روح والدته - الأ وهو
 رعاية المسلمين بتربية البنات وتعليمهن ما تتوقف عليه حياة الملة ونهضة الامة في هذا العصر
 فهذا كتاب اسلوبه اسلوب القصص والروايات، تذكراً لقراءة الناشئين والناشئات،
 ولكن معانيه ومسائله من لباب العلوم العالية التي تفيد الراسخين في العلم والراسخات،
 فهو من خير كتب المطالعة لقارئ اللغة العربية وقاراتها، وكتب الحكمة الدينية
 لطالبيها وطالباتها،

إن الآيات التي توجنا بها صدر هذه المقدمة قد خاطب الله تعالى بها نساء
 رسوله خاتم النبيين، بعد وفاة السيدة خديجة ام المؤمنين، ولكنها تشاركين فيما
 فضلهن تعالى به من كونهن لسن كسائر النساء، بما هن من مقام الاسوة الحسنة،
 وبما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وتفضلن كلهن في مساعدته صلوات
 الله عليه وسلامه على نشر الدعوة، والتهبوا باعباء الملة، والجهاد في سبيل الله
 بالنفس والمال، في عهد شدة الجهد ومقارعة الاهوال

وقد قفى عز وجل على تلك الآيات، بآية (ان المسلمين والمسلمات) التي أشرك
 فيها النساء مع الرجال، فيما أعده من الجزاء على صالحات الاعمال، وأحسن الاخلاق
 وعقائل الفضائل والحلال

طبعت هذه السيرة الجليلة الطبعة الاولى في عهد مؤلفها رحمه الله تعالى سنة
 ١٣٢٦ وقد نفذت نسخها منذ بضع سنين أو أكثر، وكثرت مطالبة الناس لنا باعادة طبعتها فلم
 يتيسر لنا ذلك الا في أواخر هذا العام (١٣٤٥) وقد كثرت سواد المتعلمين من
 المسلمين عامة والعرب خاصة ولا سيما العرب المصريين أو مسلمي المصريين، فعسى أن
 يكون الاقبال على قراءتها على نسبة الزيادة في عدد القارئين والقارئات، وإن كنا
 نعلم أن الكثير من القريين قد تعلم تعليماً افسد العقائد والاخلاق، وجنى على
 الفضائل والأداب. وارجو من كل قارئ لها ومستفيد منها ان يدعو لمؤلفها
 ونشرها بحسن الثواب، والحمد لله واليه المآب، ونسأله ان يؤتينا الحكمة وفصل
 الخطاب (وما يتذكر الا اولو الاباب)

صديق المؤلف

محمد رشيد رضا

اهداء المؤلف السيرة الى روع والدته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ذكر الله تعالى والثناء عليه والشكر له قبل كل شيء ﴾

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار،
وتحركت أقلام العلوم والاعمال، وعاقت أسلاك الاجتماع والاحوال، وإذا فتحت
كتب السير والتاريخ لا تجد ذكراً لغير من دخلها ولا لعشر عشرهم ولا للواحد
في الألف، ولا للواحد في ألف الألف منهم، فلماذا يُعني المؤرخون بهذا القليل
من بني آدم وهم ملون الكثير منهم؟

ليس بعجيب ما صنم المؤرخون فإن الاكثرين من بني آدم منشا كلو السيرة،
مدشاهو الحالة والغاية، على ما بين سيرهم من التغير، وبين أحوالهم من التفاوت،
وذلك ان حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتهوا
أو تعودوه من المطالب جل أو حقر، فإذا عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء
التي يمكن أن تكتب كلها هكذا « جاؤا إلى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معاشهم
وعاشوا خاصعين للغاب وذهبوا غير تاركين أثر في هذه الدار إلا ان كان ولد أعلى شاكهم »
وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد معاشهم وجود ظاهر بالآثار فان في سيرهم
للتاريخ ذخراً من غرائب الالامداد الانساني، وبدائع مظاهره، وجلائل ما ربه،
وأمة التفاوت بين أفراده، والارتقاء والتكامل في مجموعهم، بواسطة آحاد من جملة،
وبذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم، وبأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم

وأولئك الافراد صنوف: فرسول مبشر، وحكيم مبصر، وكاتب مفكر،
وشاعر مذكر، وقاتح مفير، ومخترع محير، وكاشف منور، وباحث مصور، واجتماعي
محور، وشرعي مقرر، ونصاح مبرر، واساني مفسر، ومفضال مبسر

هؤلاء الصنوف أقطاب التاريخ على أخبارهم يدور، وما أثرهم مشاركة منها يستمد النور، ووراءهم في الذكر يأتي من أشهروا بخلق من الاخلاق، ومن عرفوا في عشرة بطيب الاعراق. ومن هما يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ إذا لم تؤيد بما رآه ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون ان يبصروا وجوه دقائرهم بشيء من اعمال اصحابها ممن كانوا كباراً في العيون لانهم اناء اما جدمثلاً، وهم لم تعجد لهم همة، ولم تؤثر عنهم منبهة، ويظهر لنا أيضاً ان إعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر مآثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون عن عمد او بالتصادف وذلك لان النفوس انما يفرحها بالباقيات الصالحات تذكار اهلها ونداحهم. وإنما سببها عن المحمول سرعة انقضاء الحاملين، وطول إشراق الباقي ذكرهم في العالمين نعم ان من لهم الباقيات الصالحات التي يبعون ويذكرون بها هم اعمل الخداة بالنفوس وأعرض بها الى المكرمات فخساسة احوالهم هي افضل ما حذ الاخلاقيين الذين يتحذرون في ان يفهموا قارئهم كيف يتكلم الانسان وكيف يصير من الاقطاب أقطاب التاريخ

* * *

اللهم إني استسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا كنزاً كثيرة لنفوسنا من سير الأقطاب من آباءنا، وأسئفرك عن زلة زها أكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إهمالهم كثير أمن سير الأقطاب من امهاتنا لعدنا ان الترق ليس تكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة، وليست المرأة محرومة من المرايا التي يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال، ذلك أننا نرى هن عمولا سليمة، وقلوباً كريمة، وهما عظيمة. وهل للرجال ينابيع للمكارم غير هذه العول والقلوب والهيم؟ ورى الاديان اعتبرت المرأة كالرجل في التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب. ورى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل ومازال نصيبها منه كبير أو تابعاً لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم، ثم على حسب مرتبتها من محيطها. وهذا غير مانع من فضل بعض الفاضلات الماحيات اللاتي تصلح سيرهن أن تكون هدى للرجال قبل النساء. ولولا تلك الزلة التي ذكرها للمؤرخين لكان اللاتي لعلمن أكثر وما اللاتي لعلمن الآن من الفاضلات بقلائل من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله وليكن العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون. الشرق سمع بهذه السيدة والغرب، الترك يعظمون اسمها والعرب،

وفارس والهند ، والافغان والسند، وفي ارض الصين تعظم ، وفي الدنيا الجديدة تكرم ،
وإذا فتحت دفتار المؤرخين عفا الله عنهم لا تجد فيها تحت اسم هذه السيدة الجليلة الا
كلمات بسيرة في ترجمة حالها ، وشرح خلاها ، ولكنا نحن شاكر وهم على هذه الكلمات
التي يملا سناها العقول والقلوب فهتدي بها على قلبها إلى عظيم أمرها كما يدرك
المبحرون عظيمة المنار إذا كانت أشعته عظيمة السطوع

ولقد كنت تفكرت في أن أكافيء والدتي بمعض المكافأة فتبينت بمد طول
التفكير ان عظيم فضلها علي هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه ، ولكن تراءى لي انه
يسرها أن أعلن للملاء فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا
الجنس ، ولم أجد أحسن طريقة إلى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة
التي هي إحدى جداتها

فمن مددتلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة حال هذه السيدة
أؤلف هذه القصة الحقيقية ، وإلى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي
وضعفي ، ومن خزائن رحمة الله ورضوانه أستبذل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة
ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له بهلذة وفائدة فلي حق أن أرجوه
شيئا ولا أرجوه الا أن يكون مساعداً في إقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها . ان
النساء امهاتنا معشر الرجال وعلى حسب تربيتهم نكون ، فلنطلب من محيطنا أن
يهذب بالعلم الأمهات ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن

عبد الحميد الزهراوي



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثه عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن ، كان له دوي قوي وأثر كبير في آسيا وأوروبا وأفريقيا . وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الامم والشعوب . ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً إلى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام . وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك ، وفوزهم بهذا الهجوم . وانتصارهم وغلبتهم على الامم ، وانضمام أمم كثيرة إلى عقيدتهم ، وتكون منسكهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلانتكي شرقاً وغرباً ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالاً وجنوباً في أسرع ما عرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكير كأنه معتاد الحدوث كثيراً ، فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيته أواملك القوم بسرعة

جديرة أن نشبهها بلمح البصر. وبعضهم يتلقاه كما هو أي يفهم أنه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراها جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر، ولدى التأمل نجد هناك جزئين تم بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروه من العرب. وبديهي أن أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هذا الفضل الاول أي سبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشرف قومه هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد من قريش. ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزممت أن أقدم في هذه الاوراق لمحي القوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتظفا هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقاريء على سيرتها ان أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعد على معرفة هذه السيدة الجليلة

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة، نقف الآن عند هاتين الكلمتين وثلثت قليلا الى مبحث لطيف نختصر فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام أنهم يعرفون أصول أمتهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون أنهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الاصول والاولائل . ومن تسامح بتصديق ما يروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات . ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؟ لاندرى ولكن يلوح لنا أنه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

أما الباحثون عن أنساب الشعوب فلما يتسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد آتسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) السامية و (٢) الارياية و (٣) التورانية

وظاهر من هذا أنهم لما أرادوا وضع أسماء للاصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض مالفق في - كاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا ، ويبقى

التخاليق مستمسكين بما قد حكى لهم من قبل وربما تسلى بحب الحقيقة عن احتجاجها برؤية تماثيلها ومآثرها الا أساطير الاولين أما نحن فترى أنه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لاننا اذا اشتيننا المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ما تنفذ مراحل أعمارنا من غير أن نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز أن نطمع فيه

فاذا أردنا الآن أن نعرف العرب فعلينا قبل كل شيء أن نريح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعنا من معرفة ذلك في سائر الأمم فهذا لا حاجة الى ما يدكره علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم العلم بسام أبي الشعوب السامية وكيف بني أهل الفن مباديء على شيء غير معروف بالطرق التي تفيد العلم اليقيني، وما أغنى من يريد أن يعرف جيلا كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

يقول المؤرخون إن العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣) مستعربة، أما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهب عنا تفاصيل أخبارهم لتقدم عهدهم وهم عاد، وتمدود، وطسم، وجديس، وجرم الاولى، وأما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم، وهو لا يعجبني لان البائدة ليست موجودة حتى تعد وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنهم لم تبد. وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلاً ولم يذكروا لنا من هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسماً مستقلاً ولم يأتوا بدليل قويم على أنه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ما ذكروه ان اسماعيل الذي كان غرباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عريية من تلك القبائل التي كانت حولها . فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يدكر إذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسماً مستقلاً هو ثالث ثلاثة أو ثاني اثنين إذا ذكر العرب ؛ اسنا ندرى ولكننا نعرف أن هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتفر الاكثرين وهي في الحقيقة لا تنصر على النقد والحكم فليت أولي الالباب يكترون من حك هذه المشهورات

وانما يعجبني جداً في هذا الباب ما روي من أن النبي العربي عليه السلام كان إذا اتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزوه ويقول « كذب النسابون »^(١) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح وأما الذي لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئاً فهو أن العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنتسبين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهور أن قبائل الحجاز أصلاً ، ولقبائل اليمن أصلاً آخر . وللقبائل بمد ذلك أصول متفرقة من أحد الاصلين .

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتمتعه : قال تعالى « وقرونا بين ذلك كثيراً » ولكن ثبت في أحاديث أصح من هذا أنه « من ذرية اسماعيل وخطب الله تعالى قومه بقوله (ملة أيكم ابراهيم) وكتبه محمد رشيد رضا

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا، فمدنان هو أبو عرب الحجاز غالبا، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا وإن قال قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون، متقاتلون متدابحون، لا ملك لهم جامع، ولا شرع فيهم وازع، ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه اخبارهم، وتذكر فيه ما آثرهم وآثارهم، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ولستنا نعرفهم إلا بالاسلام، فالاسلام قد جمع الازواع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو، وهذا لا يثبت أن العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم؟

نقول لصاحب هذا القول إن العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم، فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم، واذا لم نثق بنقل أشعارهم استطعنا أن نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم. فالفرس قد سبروهم لان من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين. والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب، والديانة الجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس، والسكناس تعرفت بهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا، وبيع اليهود ماجهاتهم، والفلسفة ما أنكرتهم، والحضارة قد ألت بمساكلهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم، فكيف يكون هذا الجليل مجهولا بعد كل هذا؟

إن العرب كانوا معروفين . وما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة ، لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبة عند التناصر ، فاذا رجعوا إلى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة إلى أب لها تم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا ولا يستبعد من أمة محتاجة إلى التناصر وليس لها كسائر الأمم كتاب يجمع أخبارها وسير أبطالها أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم ، وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم ، وقد كان الرجل من العرب إذا عظم أمره أو كثرت ماله انفرد بأهله واتممت إليه الذرية ووضعوا لأنفسهم نسبة جديدة من غير أن يضعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الأولى لأن لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر أحد علماء هذا الشأن أن العرب كانت قبائلهم أرحاء وجماجم فالأرحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها ، إلا أن ينتج بعضها في البرحاء وعام الجذب ، والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب إليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكثف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ما ذكره عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك أنه رأى في منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المهاجن يتحون الناس عنه ويوسعون له

فد نامنه: وقال له ممن الرجل؟ فقال « اني رجل من مهرة ممن يسكن الشجر »^(١) قال يزيد فكرهته ووليت عنه فنناداني من ورائي: مالك؟ قلت « لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك » قال « إن كنت من كرام العرب فسأعرفك » قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت « اني من كرام العرب » قال فمن أنت؟ قلت « من مضر » قال « فمن الفرسان أنت أم من الارحاء؟ » فعلمت أنه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا . فقلت « بل من الارحاء » قال « أنت امرؤ من خندف » قلت « نعم » قال « من الارومة أنت أم من الجماجم؟ » فعلمت أنه أراد بالارومة خزيمه وبالجماجم بني أد بن طابحة . قلت « بل من الجماجم » قال « فانت امرؤ من بني أد بن طابحة » قلت « أجل » قال « فمن الدواني أنت أم من الصميم؟ » فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومزينة وبالصميم بني تميم . قلت « من الصميم » قال « فأنت اذاً من بني تميم » قلت « أجل » قال « فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الاخرين؟ » فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم الاخرين بني عمر وبني تميم . قلت « من الاكثرين » قال « فأنت اذا من ولد زيد » قلت « أجل » قال « فمن البحور أنت أم الذرى أم من التهاد؟ » فعلمت أنه أراد بالبحور بني سعد والذرى بني مالك بن حنظلة وبالتهاد امرأ القيس ابن زيد . قلت « بل من الذرى » قال « فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة » قلت « أجل » قال « فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب؟ » فعلمت أنه أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم . فقلت له « من اللباب » قال « فأنت من بني عبد الله بن دارم » قلت « أجل » قال فمن

(١) بكسر الشين وسكون الحاء المهملة صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن

اليوت أنت أم من الدوائر ؟ فعلت أنه أراد بالبيوت ولد زراة وبالدوائر الاحلاف . قلت « من البيوت » قال « فانت يزيد ابن شيبان بن تميمة ابن زرارة بن عدس وقد كان لايك امرأتان فأيهما أمك ؟



ولقد غلط من طنوا أن العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط ، كلابل كان لهم حضارات ولو كهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغين بالتاريخ . وملوك الحيرة (في العراق) مشهورون . من عرف تاريخ الفرس عرفهم وان جهل تاريخ العرب . أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلاله الازد من ولد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم . ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جديمة الارش بن مالك بن فهم وجديمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صابنة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جديمة قتل أباهما فاحتالت عليه الزباء وأطعمته في نفسها حتى اغترت وقدم اليها فقتلته وأخذت بثرا أبيها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن أخته عمرو اللخمي جد الملوك المناذرة اللخمين .

والملوك الفسانيون في الشام مشهورون أيضا لا يجهمهم من عرف تاريخ الرومان إذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن القوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه ، وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعة من سليل

(بوزن مليح) فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضحهم .
وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان ابتداء ملكهم
قبل الاسلام بأربع مئة سنة وقيل أكثر من ذلك. ولما ملك جفنة وقتل ملوك
سليح دانت له قضاة ومن بالشام من الروم، وبنى بالشام عدة مصانع
ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة . وبنى بالشام عدة ديور منها دير
حالي ودير أيوب ودير هند، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبنى صرح
الفرير في أطراف حوران مما يلي البلقاء . ثم ملك الحارث بن ثعلبة، ثم
ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبنى الدناطروأذرح والقسطل، ثم ملك
بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبناء فبنى بها الحفير ومصنعه،
ثم ملك بعده المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة
بن عمرو بن جفنة الاول ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك
بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الإيهم بن الحارث
وبنى دير ضخم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث، ثم ملك
جفنة الاصغر بن المنذر الأكبر، وهو الذي أحرق الحيرة، وبذلك
سموا ولده آل محرق . ثم ملك بعده أخوه النعمان الاصغر بن المنذر
الأكبر، ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر، وبنى قصر السويداء ولم يكن
عمرو أبو النعمان المذكور ملكا، وفي عمرو المذكور يقول النافعة الذيباني
علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات تقارب
ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان، وهو الذي قابل
المنذر اللخمي بن ماء السماء : ثم ملك بعده النعمان بن الإيهم ابن الحارث
ابن ثعلبة، ثم ملك أخوه الحارث بن الإيهم، ثم ملك بعده ابنه النعمان

ابن الحارث وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخمين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان . ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث . ثم ملك ابنه الحارث بن جبلة ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث . ثم ملك بعده الإيهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسر وبني له قصرًا بالبرية عظيمًا ومصانع . ثم ملك بعده أخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده أخوه ماثر احيل بن جبلة ثم ملك أخوهم عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الإيهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي أسلم في خلافة عمر ثم عاد إلى الروم

ومن ملوك العرب ملوك كندة الدين من سلاتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو ثم تصور سمي بالمقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لأنه وافق كسرى قباد بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباد المنذر ابن ماء السماء اللخمي بن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث المذكور فلما ملك انوسروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وأربعين نفساً من ذوي قرباه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث إلى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجر أبو امرئ

القيس الشاعر وكان حجر قد ملكه أبوه تلى بني أسد ابن خزيمة فبقي أمره
متما سكا فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا تلبيه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طائفة ثم
هجموا عليه بنته وقتلوه غيلة وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أياتا منها
بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جلل

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد أبيه فاستنجد ببيكر وتغلب
على بني أسد فأجده وهو هربت منهم بنو أسد وتبهم فلم يظفر بهم ثم تخادمت
عنه بكر وتغلب وتطابره المنذر بن ماء السماء ففرقت جموع امري القيس
خوفا من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضا فصار يدخل على
قبائل العرب ، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السمؤال بن سداء
اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ، ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به
وأودع أدراته عند السمؤال وكانت مئة وفي مسيره إلى ملك الروم قال
قصيدة تشعر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبابة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا الاحقان بقصيرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقدمت في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقبال ، وقد
وقفت أمام الأثم والأجيال سنين من الدهر ، لا يعرف لها حصر ،
لمرئك إن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين ، وانهم كانوا متشتتين ،
من غير ملك جامع ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير
أن يكلف نفسه بحثا وهو لما يحيط بذلك خبرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد - كانوا هم أحق بمعرفة أنفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم. وما نقل اليها عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرآن له شاهدة، وأمثاله أمام أعيننا مشاهدة. وإذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق، فإن تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار، ولست الكتب أحق بالصدق من النرائن الشاهدة والنظائر الناطقة

من شاء ان لا يثق بمنقول البتة لا يضرني رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا غير العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا وإنما يضره وحده بقلل استنفادته من المنتقون وكثروا وساءوا وغرورده. ثم يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمقوله. ومن شاء أن يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقسه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية ولا أزيد شيئا على ما أوضحت به أن العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم (١)

من أجل هذا نؤمن بما نقل اليها من اسب سببتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فإن هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد في قبولها

وقد قبلنا أنها ان لهؤلاء العرب المعروفين أصلهم معروفين عندهم

(١) قد يقال أن الثقة بما كان برويه السابون والمفاخرون من العرب في عهد بداوتهم أجدر بالثقة من كثير من رواية غيرهم وتدوينه ما علم بالقطع من جودة حفظهم ومن بعد بعضهم لبعض بالشعر وفي الحمامة والجرية التي كانت عندهم ولقاة دواعي الكذب في عهد البداوة بطبعها عند كل الأئمة

ومجهول ماوراءها وهما عدنان وقحطان ، فأما قحطان فقد أخذت ذريته
بخطها من الملك لان كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته واما
عدنان فان حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أي
انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفيء
مجدد ، وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور مبين بهر العالمين أجمعين .
فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لاننا
نريد ان يتعرف القاريء بقوم خديجة الخوصيين . ﴿ فعدنان ﴾ ولد له
﴿ معد ﴾ ومعد ولد له ﴿ نزار ﴾ وأولاد نزار أربعة ﴿ مضر ﴾ وإياد
وربيعة وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق .
ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجود وقس بن ساعدة
الايادي المشهور بالفصاحة . ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر
ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت
لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب . ومن بني بكر
ابن وائل بنو شيبان ومن مشهور بهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة
ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيقة ومن مشهور بهم مسيلة الكداب
وولد لمضر بن نزار ﴿ إلياس ﴾ وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا
فن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم (حليلة)
مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل تميل وبنو عامر وضميمة
وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نمير وباهلة ومازن وغطفان وبنو عبس
الذين منهم عنزة المشهور وقبائل سليم وبنو ذيبان وبنو فزارة وكان
بين بني عبس وبني ذيبان حرب داحس التي ظلت أربعين عاما . ومن

بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور
 وولد لالياس بن مضر ﴿مدركة﴾ وطابخة ومن ذريه طابخة بنو
 تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة
 وولد لمدركة بن الياس ﴿خزيمة﴾ وهديل والى هذيل هذا تنسب
 جميع قبائل الهدليين ومنهم أبو ذؤيب الهدلي الشاعر المشهور
 وولد لخزيمة بن مدركة ﴿كنانة﴾ وأسد والهون وولد الكنانة ابن
 خزيمة ﴿النضر﴾ وملكان وعبدمناة وعمر ووعاص ومالك فمن ملكان
 بنو ملكان ومن بني عبدمناة بنو غفار ومن مشهورهم أبو ذرء وبنو
 بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدليل ومن مشهورهم أبو الأسود الدؤلي
 وبنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة
 وولد للنضر بن كنانة ﴿مالك﴾ ولم يعرف له ولد سواه وولد لمالك هذا
 ﴿فهر﴾ وفهر هذا هو الذي سمي قريشاً ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر
 ﴿غالب﴾ ومحارب والحارث فمن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو الخليج
 ومن مشهورهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قريشيون
 وولد لغالب بن فهر ﴿لؤي﴾ وتيم الادرم ومن تيم المذكور بنو
 الادرم ومعني الادرم ناقص الذقن
 وولد للؤي بن غالب ﴿كعب﴾ وسعد وخزيمة والحارث وعاصم وأسامة.
 ومن ذرية عاصم بن كعب عمرو بن ود فارس العرب الذي قتله علي بن أبي طالب
 وولد لكعب بن لؤي ﴿سرة﴾ وهصيص وعدي فمن هصيص بنو
 جمع ومن مشهورهم أمية بن خاف وأخوه أبي بن خاف وكلاهما كانا عدوين
 عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضا بنو سهم ومن عدي بنو عدي ومن

مشهورهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرقة بن كعب ﴿كلاب﴾ وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهورهم أبو بكر الصديق وضحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهورهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ﴿قصي﴾ وزهرة قومه من ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيما في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجده وولد لقصي بن كلاب ﴿عبد مناف﴾ وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبه حجاب الكعبة ومن مشهورهم النضر بن الحارث كان من أشد أعداء النبي (ص). ومن عبد العزى أيضا سيدتنا خويلد التي نروي سيرتها وولد لعبد مناف بن قصي ﴿هاشم﴾ وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس أمية ومنه بنو أمية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان مؤسس الملك الأموي. ومن المطلب بن عبد مناف المطاليون ومن ذريتهم الإمام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم ﴿عبد المطلب﴾ ولم يعلم له ولد سواه. وولد لعبد المطلب ﴿عبد الله﴾ وحزرة والعباس جد الملوك العباسيين (١)

وولد لعبد الله بن عبد المطلب ﴿محمد﴾ النبي عليه الصلاة والسلام

(١) عبارته توهم أن هؤلاء جميع ولده وليس هذا بمراد ولكن من الغريب أن ينسب أباطال وهو يذكر المشهورين ومن أشهر بمدرسة رسول الله «ص» من أبي طالب وولده علي بالمر تضي وهو يذكر كذا كرت سلالة نسب احد ذريته من السبطين الطاهرين

الفصل الأول

مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب، قصي عن العمران، في واد غير ذي زرع، لا تناسب فيه الامواه، ولا تكتنفه الحداثق، ولا تقوم للصناعات فيه دولة. ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا، ولكن أبدله الله جلالا معنويا، وكساه جلالا روحانياً، فالأفئدة تهوي اليه، والمطايا تزجي له من كل فج عميق،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشيرة التي لا يجبل اسمها وشهرتها أحد، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة بالحجاز من شبه جزيرة العرب، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها لم تقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلاتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا أن نحزر أهلها اذذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل. وذلك أن قصي بن كلاب استطاع أن يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث أن صارت لهم خاصة

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره

مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرفوها ويحجون إليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقى متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بمض المعالجة وتزال عنها القشور . أما من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان واما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة والابن ومسقوفة بمذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق إلى يومنا هذا لم يزد على طول القرون الا تشريفا وتكريما ، ولم يتغير فيه إلا أشكال الابنية وازدادت التجارة ، والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشمائر التي حوله وانما بنيت هناك زيادات ومحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيد انها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمدده من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ﷺ) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لانه لم يكن بمكة من ماء إلا في آبار بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت

انصرف الحاج اليها . ولخفر زمزم حدث طويل خلاصته تم على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج ، فاذا تأملنا في حرص اليوم على مثل هذه العناية بالانفراء وانباء السبيل لعلم شبتا من روح تربيته المهتم وترقيه العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه « خديجة »

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكانهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغربية الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حد ذاتها ان تثمر نظاماً بالغا منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالأخبار كلها اداله على أن النوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا يعهد له بصيراً أن كل فرد من أفراد تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار ، وكل منهم في أمن من فوات الحفوق وابتداء الحدود . الجنايات فنيية ، وكرامة الناس محفوظة . والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبية ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحه .

فاذا أضفنا إلى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه اذام نجد أن ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب إذا أزيلت يصبح أول مجتمع راق في الدنيا وخليقاً أن يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت بديع جماله ، وأشرأبت الى عظيم كماله : ثم تاقمت إلى تعريف العالم بما أكنت

تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية وقد وقع ذلك فان الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري من ينظفه من تلك العيوب التي أشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

أما الجمهورية التي أشرنا إلى أنها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك أنهم رأوا الشرف انتهى إلى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة ، ثم أجمعوا أمرهم على أن يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على أن يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها تعد من مفاخره ، فمهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف ، وبذلك أعطوا الاعمال التي يجذبها الفرد أو الاسرة حتماً من التكريم والتشريف ، ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النبوي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها ، وعظموا في أنفسهم حقها ، و كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود ، ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألفوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لنوا إذا صدقوا في تضامنهم وصلحوا في مشاورهم واراتهم الحق ، وقليلة الجدوى إذا مرض تضامنهم ووهي نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة إذا وجدت

مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الاقربين .
أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنهم كلهم يحملون بين أضالمتهم نفوس الملوك . وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام مؤقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شنف بالمحاربات فملاقبتهم الخارجية مع جيرانهم من التبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم . فإن نزل بهم ما يطيعونه كشفوا الأثم عن قوتهم وبرزوا من خير تريث ، وإن نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا إلى الأناة ، وفتقوا من الحيلة أبواباً يخرجون منها إلى السعة من الضيق ، ومن فل الجيوش بالحسام إلى فلها بالبيان ، وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً .

ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي (أبرهة) الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقاتله عبد المطاب جد النبي ﷺ وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف ببعض الشيء من حدثه التي كان بها مسوقاً لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية ففقل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في أهل هذا البلد ما لم يكن يحظر له في بال

نم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجا من الامر وذلك أنه لما أتاهم أرسل إليهم رجلاً حميراً كان معه اسمه حنطرة وأوصاه أن

يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه أن الملك لا يريد الحرب وإنما جاء أهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب أننا لا نريد حرباً . قال حناطة إنه أوصاني بأنه يريد . واجهتكم إن لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة إليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه وأكرمه وأخذته إلى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول ما يبدو له فلم يكن من عبد المطلب إلا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه . بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبود وقال له إذالم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا إباننا . قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أدعيتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في الأموال وتترك بيتنا هودينك ودين آبائك ؛ فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه . فقال له إنه ما كان ليمتنع مني ، فأجابه أنت وذاك ، ورد أبرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصراً على عزمه ، ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم أن يعتمسوا بالجلال ، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون ، وقد أتى من لدن العناية الفيدية ما لم يكن في الحساب ، فان أبرهة لما أصبح وتبها لدخول مكة برك الفيل الذي كان ركبته وحرز وأتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يبق ، ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم أبرهة وتذكر ما أنذره به ذلك الرجل الجليل السني الطامة (عبد المطلب) من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فحمدت

في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه
بالسلم، ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه
بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية وأشهرها . وفي عام هذه الحادثة
ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته . ورجال هذه
احملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه
الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

﴿ بيوتات قريش وخصائصها ﴾

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وأممية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ،
وعدي . وجمح . وسهم

وأما الأمور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ،
والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابه ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ،
والاشناق ، والقبه ، والاعنة ، والسفارة . والاسار ، والاموال المحجرة ،

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحية يحتاج الى تفسير يوافق المصر
الذي نحن فيه حتى تفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهوريا على
حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا

يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

واما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفیه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضا في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

واما العقاب فهي راية قریش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفتوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الاية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمعناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث ابن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمعناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أم الامور العمومية في مدينتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متمات مدينتهم، ولمن يتولونها شأن يذكر عندهم. وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار

الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها
واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني
عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بهارثاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب
اذا شبهناها من بعض الوجوه برئاسة الوزراء أو رئاسة مجلس الاعيان وكانت
هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة
ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة أن رؤساء قريش كانوا لا
يجمعون على أمر حتى يرضوه علي صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه
وافقم عليه والاتخير وكانوا له أموانا

واما الاشناق فهي الديات والمقارم فقد كانوا يساعدون من يستحق
المساعدة ممن حمل منراً أو دية وكان النروض مع صاحب المقرم لجمع
المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر
اذا نهض مع أحد صدقه قريش وأعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه
وأما القبة فأشبهه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون إليها
وقت الحرب فقط وامل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم
لها كل وقت اذا أتججت نيرانها، وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون إليها
ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم
خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي
أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد الامام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ
فن التعبئة اليوم يخلو من الاستثناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي
كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)
وأما السفارة فأنرادها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في
الحروب أي في أوائلها أو بعد شوب نازها وتماظم أوزارها ويحتاجون
اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص
بني عدي الدين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني
الشير بكل منقبة صالحة إذا كان سفير قوم

أما الايسار فهي الازلام والقдах كانوا يضربون بها اذا أرادوا
أصرا وكان هدا من خرافاتهم وعبوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان
هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء
الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في امم بسماح
من العقلاء أو بروج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين
منهم صفوان بن أمية صاحبها

وأما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن
تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابها . وقد
كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني
سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة .
واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرم
وعشائرم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وأما كانوا يمتصون في الأمر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الأمور بأشبابها

وهنا يخضر في بال القاريء أن يسأل عن الضعيف الذي لا أيوي إلى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله إذا أهين أو ظم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع الفتوي عن الضعيف ، وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم يسووها ولم يميلوا شأنها وذلك أنهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف و"دود عنه"، وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبدالله بن جدعان الشبير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجردوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكابوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

معهم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر أنهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجردوا واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا أن نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والأمر في الأمور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها أن يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . وأما الحوادث

الجناية فلا يجوز اهلها وتر كهامن غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكين في بلد واحد قد يكون مانعا من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتئاب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابناها :

أبني لا تظلم بمك	ة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بني	ولا يفرّتك الغرور
أبني من يظلم بمك	ة يلقى أطراف الشرور
أبني يضرب وجهه	ويأخ بخديه السعير
أبني قد جرت بها	فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما	بنيت بعرضتها قصور
والله آمن - طيرها	والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يفرينا بتعرف فلسفة القوم التي كانت
تمسهم على مثل هذا

الفصل الثالث

﴿ ديانة أهل مكة عند البعثة ﴾

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ماهي نفوسنا ومن أين مبدؤها والى ابن منتهاها وماذا يزكيا وماذا يدسها نعم طرقوا هذا الباب ولكن لم يفتح لهم عن الطريق الموصل الى هذه

الحقائق المكونة بل كان نصيبهم كنصيب الاكثرين ضونا وورجا بالغيب
 أدرك القوم ان للعالم خالقا ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض
 وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافتدة ، وقالوا كما يقول
 سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرغبة منه ولكن في هذه السبيل تاهوا
 فتركوا ههنا العقل والتفكير وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة اوثانا وقالوا
 ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل
 لاناس صالحين محبوبين عند الله فتمظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله
 عند غلظوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم
 ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي
 الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخليهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى
 وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم
 ولم يكن جائزاً ان يشر كوا به الجماد

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله
 فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شر كآؤه في الملك ،
 ووطنوا جميعهم ان ابن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم .
 غلظوا في كل هذا وتسفتت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم
 صانعاً مدبراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قدر قف
 على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه
 أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن
 الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا

الباب، وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزء
 الاخروي. ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعا من ان
 تكون قلوبهم منجذبه الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحت على مثلها
 الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف
 وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب، وعقولهم
 اما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصره
 ولا يبعد عن الصواب من نقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر
 كلهم الا قليلا

فاذا صرفنا بصرنا عن تلوث عقولهم بزغات الوثنية لانجد من
 بعدها هذه العقول مضاهة وهي التي أضاعت لهم فرفواها الاخلاق
 الصالحة والفاصلة ولم يكن يعوزهم الا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم لاني
 هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته وانتقرب اليه بتوجيه الوجه
 واسلام القلب اليه، ونولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمحبي المرشد من
 فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي. ولكن الرجاء بالتوم
 في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضي في منتهي الاستعداد لما أراد أن يلقى
 البذار والي جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج
 إلى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان
 أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر
 كلهم الا قليلا كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه
 ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال

جذوره ولا ندرى السر في هذا. ولكن انظر الى هذه الجماعة التي
 كيف أقامت لها شأنا رقيقا في العرب كلهم اذ غلبتهم على الوضن
 جوار البيت المشرف وأحسنتم المنام في هذا الجوار الشريف فنامت
 بخقوق حجاجه من سقاتهم ورسدتهم. وقامت بحقوق المستضعفين منه
 من حمايتهم وتأمينهم، وعامت بسر المضامن والتمعاون واتواصى بالعدل
 والاحسان حتى رضي العرب نهمديتهم عنهم اذ ائتمروا وابلهم لا بر
 عظيم وشرف جسيم. على ايهم لسوا في العرب أكثر عدداً، ولا أقوى
 ناصرأ. لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في بناء القلوب آبه. وبنفوا
 في صفاء العقول النماية. والامم والشعوب نجبا بأفراد وموت بأفراد
 واذا ما سخر الاله سعيداً لانس عابهم سمعاء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حربتهم التي كانوا ائتمروا بها منهم
 لما اخلصوا من تملك أحد عابهم اخلصوا من شرور كبرية تبع التملك
 فكانت ممانرتهم ساذجه خاليه من عبارات المنلق والخنوع. وكانت
 مكاسبهم لا تقسمهم لا يشاركهم فيها. مشارك ولا يبرفون المغارة المترتبة
 والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم بنحاكون يوم يشاءون الى
 من يرضونه من كرائيمهم ولا فانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من
 أحكامه فرائضهم وانما نخشون بأس بمصهم فيرتدعون عن الشر الذي
 يثار له العموم أو يثار له من أصابهم خاصة

وكان جائزا لاحدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم

لهندي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله، وقد كان لبعضهم فلسفة في النشور
والجزاء الاخروي ولبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان وامضهم ميل
الى تقليد اهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون احداً على مثل هذا
ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراما بل يبيعون ويشترون كما
يشاءون وكل منهم عارف بمصالحته ولهم همه في التجارة والرحلة فيها الى
الشام وغيرها في الصيف والشتاء
أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون
الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهاز الرقيق واحتقاره
وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على
البقاء لياخذ ما يعطين في سيده
وأما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن
بعولة، بيد أنه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى
رأي أهلهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن ان يواجهن الرجال ويبرزن
أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت
تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق
ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لأنه مسلوب أفضل كساء كساهم وهر بهم
الأعلى، الذي خلق فسوى،

الفصل الرابع

﴿ مقام النساء في قوم خديجة ﴾

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاماً مهيناً بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ماعرف عنهم من انحطاط مقام المرأة أنهم كانوا يكرهون البنات وأنهم كانوا يثدونهن أى يثدونهن في التراب وهن على الحياة (١٦ : ٥٨) وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ٥٩ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الاساء ما يحكمون *

هذا ماعرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار، وفيها الحمقى واولو الالباب، وفيها القساة وأهل الرحمة . فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لانعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نفي الأود
(دفن البنات في الحياة في سن الطقولية) فلا ينبغي أن يقال بدون
تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يثدون البنات . إن
قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل أن يكونوا قتلوا بنات . كلا
انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون . منهن العمول
والارادات ، واما الذي نقل عنهم فهو عمل نفر يكادون لا يذكرون
من فقرائهم او حقايم او قساتهم

ولم يكن الذين يثدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيضا من
هذه النسب البريئة أو احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لأول وهلة بل
كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . وان
الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد
كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزین لهم خيالهم الفاسد ان فئاتهم اذا ظلت في
ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرموهن بنفقة
تساويهن بأترابهن ، من ذوى قرابهن او جوارهن ، فيروز موارثهن في
التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران للحق ان هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن
هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها
قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله
هذا من طريق اخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتاه ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب
 للفتواد ولو قدّم من الجلود ، و كرب نسود انوجوه البيض وتبيض الشعور
 السود ، فيزين له خيله ان يحمي كريمة دلدة كبده من مثل هذه الحياة التي
 بلاها فقلاها ، وان ينفي بألم ساعة عند توديعها وتسيمها الى الابد آلام
 سنين يراها فيها كثيرة النصب قابلة النصيب كما يتبي أحدث بألم الركي
 آلام ستم مزم

وكان منهم حتى توسوس لهم شياطين الخواضر بأن الفتاة ربما
 وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة . ولو قضي على كل البشر مثل هذه
 الوسوس لا ذنت الدنيا بالانقضاء ، ولكن الموجد لم يشأ إلا ان تكون
 الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوسوس ساطانا
 على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع
 نصيبهم من الفقر والحق ، فلو علم المعدم ان اليسار لس محتكر آفي بيوت معينة
 واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة . وان
 قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند
 قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف
 يديه غصنا منه أنبتة الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وعاية الخذلان
 ويشر أقصى درجات الخسران لرأى انه جدير بالبكاء على حظه من
 ضعف النفس

وهيات أن يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام. وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها، واني يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب، من غير ما طلب؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدكم بها فلا يستطيع أحد انكاره لان القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة. وليس معناه ان البنات تظل طول دهرها مكروهة وان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أوائك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضمفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه، وما إجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى أبوهن لوأدهن من الفقر؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يعزون المرأة ولا يبينونها، وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق في نظر العدل، ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه ادراك وان لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان المذكر تفضب وترضى وتنم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صنفها لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعتك، وان ملت عنه حط اليك، تحكين عليه في أهله وماله؛ واما الآخر فوسم عليه،

منظور اليه ، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعز
عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله « (*) »
فقالَت يَا بَتِ الْاَوَّلِ سَيِّدِ مِضْيَاعِ لِلْحَجْرَةِ فَمَا عَسْتَ اِنْ تَلَيْنِ بِمَسَدِ اَبَائِنَا ،
وَتَضْمِعِ تَحْتِ جَنَاحِهِ اِذَا تَابَعْنَا بِمَلْهَا فَأُشْرِتِ : وَخَافِنَا أَهْلَهَا فَأَمْنْتِ ، فِسَاءِ
عِنْدَ ذَلِكَ حَالِهَا ، وَقَبِجِ عِنْدَ ذَلِكَ دَلَالِهَا ، فَانْ جَاءَتْ بِوَلَدِ اُحْمَقْتِ ، وَاِنْ
أُنْجِبْتَ فَمِنْ خَطَا مَا أُنْجِبْتَ ، فَاطُو ذَكَرَ هَذَا عَنِّي وَلَا تَسْمَعْ عَلَيَّ بِمَسَدِ .
وَأَمَّا الْآخِرُ فَبِعَلِ الْفَتَاةِ الْخَرِيدَةِ ، الْحَرَّةِ الْعَفِيفَةِ ، وَاِنِّي لِاخْلَاقٍ مِثْلَ هَذَا
لِمُوَافَقَةِ زَوْجِنِيهِ « فَزَوْجَهَا الثَّانِي وَكَانَ هُوَ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَوَلَدَتْ
مِنْهُ مَعَاوِيَةَ مَوْسَسَ دَوْلَةَ بَنِي اُمِيَّةِ الشَّيْبَرَةِ وَأَحَدَ نَجَبَاءِ الْعَرَبِ وَدَهَانِهِمْ
فَهَكَذَا كَانَ مَقَامُ الْمَرْأَةِ فِي قَوْمِ سَيِّدَتِنَا « خَدِيجَةَ » لَا يَفْتَاتُ أَهْلَهَا
عَالِيهَا فِي حَقِّهَا وَهَكَذَا كَانَ رَأْيُ ذَوَاتِ الْحِجْبِيِّ وَالزَّكَاتَةِ مِنْهِنَّ

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والامور
العمومية وناهيك أن الحرب التي ظلت مستعرة نحواً من اربعين سنة
بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن
من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان يهبسة بنت أوس
ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابو هانم الحارث بن نوف المري
وأراد ان يدخل عليها قالت اتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً - تعني
بني عبس وبني ذبيان - فقال لها ماذا تقولين ؟ قالت « اخرج الى هؤلاء القوم
فأصلح بينهم ثم ارجع الي » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن
ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعا الديار من أموالهم

وحسبك من اشتهرن من العريبات في السياسة منهن اللاتي كن من شيعة الامام علي ابام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمارة بن الاشر الهمدانية، وبكارة الهلابة - والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية - وام سنان بنت جشمه بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية الحجونية - وام الخير بنت الحريش بنت سراقه البارقي - واروى بنت الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة تلى معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سريرة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشر ؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قال لها انت القاتلة لأخيك :

شمر كفعل أبيك بالبن عمارة	يوم الطعام وملتي الاقران
وانصر علياً واحسبن ورهطه	واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (١)	علم الهدى ومنارة الايمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه	قدما بأبيض صارم وسنان

قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكرك ماقد نسي » فقال « هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت « صدقت والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وبالله أسألك يا امير المؤمنين اعفائي مما استعفيت به « قال قد فعلت
فقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولا مبرهم

مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، وييسط بسلطائك ، فيحصدنا حصاد السنبيل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيصة ، ويسألنا الجلييلة ، هذا ابن ارطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولو لا الطاعة لكان فينا عزومنة ، فأما عزلته فشكرناك ، وأما لا فرفناك « فقال معاوية « ابائي تهديين بقومك ؟ والله لقد هممت ان أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قرفأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبنى به ثمنا فصار بالحق والايما مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيته يوماً في رجل ولاء صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين القث والسمن فوجدته قائماً فانقتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال . اللهم اني لم آمرهم بظلم خلفك . ولا ترك حقتك « ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءتكم موعظة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الارض فتمسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم محفيط) اذا أتاك كتابي هذا فاحفظ بما في يديك حتى يأتي من يتبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة أم لقومي عامة ؟ فقال ما انت وغيرك ؟ قالت هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلا شاملا وإلا

يسعني مايسع قومي . قال اكتبوا لها بمحاجتها
 ووفدت بكاره الهلاية أيضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه
 وكان بمحضرتة عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونه
 بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت أنا والله قائلة
 ما قالوا وما خفي عنك مني أكثر : فضحك وقال ليس بمننا ذلك من برك
 وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن
 قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان
 يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال مرحبا قدمت خير مقدم
 قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها أنت
 الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحمضين على القتال وتوقدين
 الحرب فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ،
 ولا يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث
 بعده الامر . قال لها تحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت لا والله لا احفظه قال
 لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها
 والله يازرقاء لقد شركت تلياً في كل دم سفكته قالت احسن الله بشارتكم
 وأدام سلامتكم ؟ فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه . قال أو يسرك ذلك ؟
 قالت نعم والله ، فقال والله لو فاءكم له بعد موته ، أعجب دن جبكم له في
 حياته ، اذكري حاجتك فقالت يا أمير المؤمنين آليت على نفسي ان لا
 أسأل أميراً أعنت عليه أبداً . ومثلك من أعطى من غير مسألة ، وجاد عن
 غير طلبه . قال صدقت وأمر لها وللذين جاؤا معها بجوائز
 ووفدت عليه أيضا أم سنان بنت جشمه وعكرشة بنت الاطرش ،

ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فجيء بها اليه فقال لها بثت اليك
لا سألك علام أحببت عليا وانبضتني ، وواليتي وعايتني ، فاستنفته فلم
يفعل فقالت له أحببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ،
وأنبضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ،
وواليت عليا على حبه المساكين ، وإعظامه لاهل الدين ، وعايتك على سفكك
الدماء ، وجورك في القضاء ، وحككك بالهوى . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت عليا ؛
قالت إي والله قال فكيف رأيته ؛ قالت رأيته والله لم يفنته الملك الذي فنتك ،
ولم تشغله الزمعة التي شغلتك . قال فهل سمعت كلامه ؛ قالت نعم والله فكان
يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست . قال صدقت فهل لك
من حاجة ؛ قالت نعم تعطيني مائة ناقة حراء ، قال ماذا تصنعين بها ؛ قالت
أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، واكتسبها المسكرم ، وأصلح
بها بين العشائر ، قال فان أخطأتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي
طالب ؛ قالت سبحان الله أو دونه ، فقال أما والله لو كان علي حيا ما
أطعناك منها شيئا قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين
وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت
عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما منه حديث من مثل ما تقدم
ف هكذا كان مقام المرأة العربية ، من أخوات سيدتنا القرشية ، وهكذا
كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور
العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشاركة لبعض الاحزاب . وما أتينا الا
باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

الفصل الخامس

مقام خديجة عند قومها

ما أكرم هذا المقام ، وأي مبلغ لا تأخذه الهيبة إذا دعي لتصور هذه المنزلة ،
 سيدة بصاعتها الفخامة والشرف يتجلبان . والجمال والكمال تألقان ،
 ومزايها كالزهر نفتحاً وطيباً وكزهر السماء بهاءً ونورا
 من شرف حسب . الى كرم محمد . الى سؤدد قبيل . الى عز عشيرة .
 الى جمال ذات ، الى كمال صفات . الى فضل حجب ، الى طهارة نفس ، ذلك
 ما كانت تترنن به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها في
 المسكاة العالية والمقام الكريم

هذه المزاي ليست بانبداع من الاشياء ، ولا نبؤها بفريب من الانباء ،
 بل هي موهوبة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهن نصيب
 بغير انحول . قد ضوت أعلامهن ، ولم ينشر ذكركهن ، ولم يسم في
 أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟
 إنما كان خديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزايها . ذلك الشيء
 هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم . وليس
 بكاف لتعالي امريء أن يكون كاملاً بل لابد مع ذلك من إحاطة قومه
 علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ، ومن المشهور أن الحجارة

الكرامة عند من لا يعرف مزيته لا قيمة لها وهي عند عارفها فوق القيم
 غلخق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلا على فضله وسعادة
 جده وحده بل هو دليل ايضاً على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم،
 فند ربح قوم كان للافضل منزلة كريمة لديهم؛ وخسر قوم لا يعلم بينهم
 الا من استعان بجيش من الحيل والخداع، وحواش من النقائص المتقلبة
 على الطباع،

واذا كنا معجبين بالسبدة «خديجة» لوفرة مزاياها الشريفة فنحن
 بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجاباً. وليست «خديجة» وحدها
 هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضيات نساءهم نلن المقام
 الكريم فيهم؛ وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي
 نقل العرب وغيرهم الى أعلى مما كانوا فيه. ولم يستطعن ذلك الا بالهن من
 التقدر الذي يليق بانسان ذي رأي معدود، وتقل مدكور، ونفس مشابهة
 وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب أبا العادل
 وأبا الفتوح والسياسة والادارة لم يكن اسلامه الا بمحاورة سيدة من
 أولئك السيدات القرشيات هي اخته عاتمة زوجة ابن عمه سعيد بن
 زيد بن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أن أكثر الناس يمرون بالمزينة يعهدون أمثالها فلا يلتفتون اليها
 ما لم تكن رائحة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضار لان فيما يعهدونه ايضاً
 ما يستحق الالتفات اليه، ويفري بالانتفاع منه ان كان مفيداً، والتناقل
 عن الانسان المفيد اذالم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك
 الرائع المنشود، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يشكن القاريء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الالفة عن إجلال شأنها هي في جلاله الشأن عند الامعان فوق ما نتصور. وفي كثير مما لا نتفكر فيه منها ما تخر الافكار صائرة أمام زاهر فوائده وباهر أسراره، فلذلك أحيينا ان نمر بقارئنا مرة في تفصيل جنة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لأنه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا مهودة في كثيرين وقد يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبألون بالمهودات، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم، نعم، نعم لم نطرف بما فوق المهود، ولم نهدهما وراء المشهود، ولا عذنا بمتدعات التصور، ولا لذنا بغرائب الحوادث، وشواذ المصادفة، وخوارق العادة، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمرور له أمثال، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار، ولكن الامر عندنا في هذه المهودات على ما قلنا. واذا ثبتنا اليها بنظر الامعان غير وسنانه تين بصيرتنا التي نأفيها عند سأم النفس من لذة الحس، أعظم ما نتوق اليه من لذة التصور وفائدة الادراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار، ولم يكن حسناً بنا ان ننسى أحسن ما تلده لنا هذه الام من الصور التي لا تخصي اننا بتذكرنا من سادوا وشادوا، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا، وبتذكرنا من اوجدوا وابتدعوا. نتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا

باستجلاء أحسن صورها ، وتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لانتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا أن تحيط بكمته جواهره خيراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل (خديجة) والفضائل عن قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أمدع لنا في «خديجة» المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الاعلى ، وتربيتهم الاديبة والعقلية في المنزلة العنيا نحن ممشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره ، وقليل منا من رزقوا فضلا من هذه القوى النافعة الآتية بالنعطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ، ثم للتربية دخل كبير ، فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعا في « خديجة » فرأينا في سيرتها ذلك المثال السنيّ ،
والكمال السنيّ

عرفنا حسن استعدادها ، لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر
النفس اذا كان غير صالح لفعالها ، كما لا يصلح الماء ، لان تطبع فيه ما نشاء ،
وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في
المجتمع . ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر
جديراً بالتأييد وقلما رأينا من نوره به او التفت اليه ، فلذلك ننينا به نحن
كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم « خديجة » ارتقاء عظاماً فان
التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً
اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولاً ومردوداً ومسكوتاً عنه . وتشتهر
المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها
اسم المنكر ، ويضطر الناس الى تفرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف
ولا يوافق المنكر ، ويبقى للناس سبغ في المسكوت عنه من الاشياء حتى
يرى كل منهم رأيه فيها ، فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجبه على نفسه ، وذلك
يستقبح شيئاً حتى يجرمه عليها . وأثقل الناس في هذه الاشياء المسكوت
عنها من جعل المعروف والمنكر ميار العاقل ما قرب من المعروف كان
حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف ، وكل ما قرب
من المنكر كان مستردلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر .
والاصل في المنكر هو الاذى والمدوان ، وعليه قيس الاصل في المعروف
قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها وأي باحث لا تأخذه هيبة اذا اطلع على ما كان تقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخريين الضارين في تلك القياقي، يدهش المطالع ما يراهم من الباع الضوياء في فن التربية على مقتضى مجتمعيهم ذلك. فتراهم مثلاً لما كانت السباحة ضرورة ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المزام الاول ولم يبالوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بانوا بهتهم في الجود الكواكب، وازينت الارض بمناقب همهم، واشار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي آثر رفقة بمائة ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربه لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان. تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسير وافيا ضربه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا يتماجدون بالذرات قتلا ويتهاجون بالذرات على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير -- وهو ابن أخي خديجة -- قتل أخيه مصعب خطب فقال «ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، اننا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل المصعب فان في آل الزبير خافاً منه» ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للمدم أكثر من الحياة الشريفة. ومثل هذا يقول علي بن أبي طالب «بقية السيف أنمى عدداً، وأطيب^(١) ولداً» وتقول الخنساء وهي احدي الشهيرات في العرب:

نهبن النفوس وبذل النفوس يوم الكربة أبقى لها
لا يستتكرن احد اذا قيل له ان الشجاعة - وهي السجية التي لا ترقى
الامم اذا خلت منها - كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يمتدون
بأحد منهم ما لم تكن فيه ، وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لان
أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد
حتى فضلوا ، والجبناء واحجامهم فيها حتى رذلوا ، وهالك من الشر في
الشجاعة والشجعان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستزلها من الخوف
على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في
سبيله كقول عنتره وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الختوف كانني أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فأجبتها ان المنية منهل لا بد ان أسقى بكاس المنهل
فاقتني حياءك لا ابالك وادلمي أني امرؤ ساموت ان لم أقتل
وقديظان ظان ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا
الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم ، فنحن لا نريد ان ناتي بآية على
شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد اسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا
ان ندل القاري على ما كان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى
أن يوقع سوءا بيني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله هنا فجزئ عليهم
جيشا كيفا ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل اخرى
فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبهم
العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي وقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار ،

وفي هذه الواقعة يقول الأششى أعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الخنوص بحمهم منا غطاريف ترجوا الموت وانصرفوا
لقوا ملدلة شبيهاء يقدمها للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع شير ناقصة موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم مثل الأسنه لامليل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جاجنا ليمدوا انا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم ولا بقية إلا السيف فأنكشفوا
لو ان كل معد كان شاركنا في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى الشباب أيديهم ملنا ببيض لمثل الهام تحتطف
إذا عطفنا عليهم عطفة صرت حتى تولت وكاد اليوم ينتصف
بطارق وببي ملك مرازبة من الاعاجم في آذانها الشنف
من كل مرجانة في البحر أحرزها تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم والبيض برق بدا في عارض بكف
ما في الخدود صدود عن سيوفهم ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن القرظ المدلي :

مأوقد الناس من نار لمكرمة إلا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا بابلابهم وانخيل عابسة لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

إن كنت ساقية يوماً ذوي كرم فاستقي الفوارس من ذهن بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم واعلي مفارقهم مسكا وريحانا
وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكل مظهر وكان
المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي إذ كتب الى بني شيبان
يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتجسس واستنارة
العزائم وفيه يقول :

قوموا جميعا على أمشاط أجلكم ثم افزعوا قد بنال إلا من من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم رجب الذراع بأمر الحرب مضطعما
لامترفا ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشما
مازال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمر على شذر مبرته مستحكم الرأي لافحها ولاضرتها^(١)
وليس يشغله مال يشمره عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا
فعلى مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب تامة وقبيلة خديجة حصة
من الشجاعة التي لا تقوام للأثم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا
يعدونه شيئا مذكورا . ينبئك بذلك قول أحد شعرائهم

خرجنا نريد مفارا لنا وفينا زياد أبو صعصعة
فسته رهط به خمسة وخمسة رهط به أربعة

حكمة العرب ومعارفها وأدبها

ثم لم يكن نصيب قوم « خديجة » في فقه النفس والحكمة والمعارف
بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها

« ١ » المريرة طاقة الجبل والحبل الشديد القتل ، والشذر القتل عن اليسار
والمنفى استحكم أمره وقويت شكيمته والفحم الرجل الهرم والضرع الضعيف

من غير كتب وكان لهم المام قليل بحركات الكواكب والانواء التي تتبعها. وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قديمة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان أو طب الحيوان. والطب يقتضي أيضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها البارى في المعدن والنبات والحيوان اما معرفتهم بالاخبار أي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس بارة عن معرفه نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفه بسيطة لا تستحق ان تسمى علماً وانما كان النسابون يعرفون اخبار اولئك الاشخاص واخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ ورتما كان السبب في اشتباه هذه المعرفة باسم علم الانساب ان عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفه تقرب القبائل والخاص الفروع بأصولها على شدة اليمد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً. وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم ياتون منه على من ينحلون حولهم. قال رؤبه بن المعجاج قال لي النسابة البكري « يارؤبه لعلك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقى هذا العلم حق الرغبة قال رؤبه قتلت له : أي أرجو أن لا أكون كذلك. قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني قال : آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله «

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلام الجوامع فيها مبلغاً عظيماً ويمكنني أن أقول إنها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وبراظه بأبداع حلة. ولا يثبتك بيمض ذلك شيء كالمأثور من كلهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال

ولا نستطيع أن نأتي هنا بتليل من ذلك الكثير لكيلا نبعث بالقاريء عن سياق السيرة ولكننا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتدكير الحكم والآداب . وصياغتها بأبداع البيان . وه مقدار ماوسعت منها تلك الافكار . ذكروا أن عمرو بن الخطاب المدواني وحممة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال :تساءلا حتى أسمع ما تقولان . فقال عمرو لحممة أين تحب أن تكون أياديك ؟ قال «عند ذي الرتبة العديم ، وعند ذي الخلة الكريم ، والمسر العديم ، والمستضعف الحليم » قال : من احق الناس بالمت ؟ قال « الفقير المحتال ، والضعيف الصوال ، والغني القوال » قال فمن احق الناس بالمنع ؟ قال الحريص الكاند ، والمستמיד (١) الحاسد ، والمخلف الواجد ، قال من أجدر الناس بالصنعة ؟ قال من اذا أعطي شكر ، واذا منع عذر ، واذا مظل صبر . واذا قدم العهد ذكر . قال من أكرم الناس عشرة ؟ قال من اذا قرب منح ، واذا ظلم صفح ، وان ضويق سح . قال من الأم الناس ؟ قال من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع (٢) قال فمن أجل الناس ؟ قال من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا اتصر ، ولم تطفه نزة الظفر .

(١) المستيد المستطي (٢) كنع انكش وقبض ، والجشع الطمع والثراء

قال فن أحزم الناس ؟ قال من أخذ رقاب الأسود بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيّب دبر أذنيه ، قال فن أخرج الناس ؟ قال من ركب الخطار . وانتسف العثر ، وأسرع في البدار ، قبل الاقتدار (١) قال من أجود الناس ؟ قال من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود . قال فن أبلغ الناس ؟ قال من حلّى المعنى العزيز ، باللفظ الوجيز . وطبى المفصل قبل التحزير (٢) قال من أنعم الناس عيشاً ؟ قال من تحلّى بالعفاف ، ورضى بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف الى ما لا يخاف . قال فن اشقى الناس ؟ قال من حسد على النعم ، وسخط على القسم . واستشعر الندم ، على ما انحتم ، قال من أغنى الناس ؟ قال من استشعر اليأس . وأظهر التجمل للناس . واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم قال فمن أحكم الناس ؟ قال من صمت فادّكر ، ونظر فاتتبر ، ووعظ فازدجر . قال من أجهل الناس ؟ قال من رأى الخرق منما ، والتجاوز منرما

وما ذكرناه من جهة معارف الذوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على أنه كان من جملة ما يعمون به من الترية تنقيف ناشئتهم بما عندهم من المعارف على الطريقة التي ألفوها وتمودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني بليها الآخرون . ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ، ولا يكلف البليد في شيء أن يكذب في تقبه مدرسته ، أو ينضي في حفظه ذاكرته ، أو في توسيمه مخيلته

(١) يريد بالبدار الساق إلى ممالحة الخصم ، وذلك قبل الاقتدار خرق أي حماقة

(٢) تطبيق المفصل لإصابعه وإبانة المضرب به . والتحزير بمبالغة من الحر في

اللحم وغيره وهو البده بقطعه

ثم قد كان مما عني به العملاء من رهط خديجة التريية على العدل ولقد اساننا شيئاً عن واعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم وكذلك واعوا بتمداح العفاف وتشريف الاعتناء والعفاف واجلال الضاربة واهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والظاهرة وقد حازت السيدة خديجة هذا اللقب الشريف باسم حقائق اذ كان يقال لها « الطاهرة »

فاذا عرف المتابع الكريم أن هؤلاء النوم حفاً كبيراً من هذه الانسباء التي هي أصول الفضائل زمتي الساحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جذراً به أن لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذ اقورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد الفاعل المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلاد الواحد بل يصل ذلك الفضل بارسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويحمس به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتركيبها من النقاىص وتحليتها بالفضائل ممن لم يعلموا أكرمهم تجويد الأكل والملبس والمسكن والتمراش. فاذا اكثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم، واستوفت وان نحس الوزن لهم، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم خديجة النفاضة بل كانت كثرتهم خير مقدمة خير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أولئك الذين وافاهم الوحي بنعتهم وهم أهله قائلاً (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)

الفصل السابع

جمال فريجة والجمال عن قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع، ومحبوب لفائدته عند العقل، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته، والأذان سماع أحاديثه، لا تزال أسرارهِ موضوع التفكير. ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب، كيف لا وهو السر الأعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقب الوجدان والادراك، فشرفه يجمع قلبه عند بني آدم بغير خلاف بينهم. واما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم. ولذلك لم نجد بدا عن ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جديرة بالذكر لاسما بمدان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا لا حظ لهم من الجمال، ولا ذوق لهم في الحسن، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن

كبرت سببه ان يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتألف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديمة

وكبر منا تمصيراً ان لا نيين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم ييروا اسرار الخليفة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكينا في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ويجدهم وفيهم أهله الكرام

ان العرب قد تنا سبت أجزاءهم ، و تناسقت أوضاعهم ، واعتدلت أشكالهم ، بياضهم جميل ، ليس فيه بهق بعض الاجيال ، وأدمتهم لطيفة ، ليس فيه حلكة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حسانهم بحظ عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخريين ، وتكون آية المنتهى في جمال العالمين ،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله السكك من صفات الحسن يجد نمة جهة جامعة ومقياسا واحدا تتفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الادييم وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعته ، وحلاوة المبسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين ، ولعل هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريههم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الادييم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلا في الجمال ، قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلا في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما اكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيرا: البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة وقال ذو الرمة احد شعرائهم:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب
وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن الحميد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أن هذا اللون هو الذي تكون صاحبه أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرة الطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا تبرعدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرة خالط صفرة في بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثره البياض اللطيف في العرب شبهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للأبيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبههم بورد الخدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة لا تنطبع إلا على أديم أبيض ، ورأيناهم يشبهون الاتناق كثيرا بأباريق الفضة كما قالت قريية بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بهجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مفرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرف في الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان وتلقمهم من حال الى حال : الى أن تهيؤا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ما هو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، وورقت بهم الى عشق الكمال المنوي الذي هو فوق كل جمال ، فلم يصعب على أولئك

الدين شفقتهم الجمال المحسوس . أن يفهموا الجمال المعقول ، وإن زدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ، ولم يعزّ نيلهم أن ينتقلوا الى العالم الجديد الذي ذنوا اليه ، لأنه تبدى لهم أجل مما كانوا عليه .

ونحن إذ نرى للعرب الحظ الأوفر من الشفقتهم بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ويري من غير تردد أنهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف . وعدم تعلقهم بكل أسباب الحضارة . وامننا اذا نحننا عن المؤثر الأعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوصاً أخذ المعتدل من المعاش . وانتقل في المعتدل من الافايم . وحبب اليهم المعتدل من المهن والاعمال . وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤيته غالباً ولا يتخاب دخل كبير في تحسين الجاس وتجويد النسل .

وإن بدأ أحدهم أن يتزوج بمن سمع بحملها بما عانجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من بشى بحسن ذوقه ، وجودة إعماله . والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كددة جد امريء القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لآخر بوادي حوف لافراط عزه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لثضر اليها وتمتحن ما بانته منها فلما رجعت قال لها الملك « ما وراءك يا عصام » قالت رأيت جمهة كالمراة الصقيلة يزينها شعر حالك ، ان أرسلته خاتمة السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأنما خطا بقلم . أو سودا نحمم قد تقوسا على مثل عين العبيرة ، التي لم يرتعجها فأنص وذيدعرها قسورة بينهما أنف كحد السيف المصقول لم يخنس به قصر ولم يمتص به طول حفت به وجنتان كالارجوان ، في يياض محض كالجمال شق وبه فم كالحام نديد المتسم فيه ثنابا غرر ، ذوات أشريتلب فيه لسان . دو فصاحه وبيان ، زين به غزل وافر . وجواب حاضر ، ياتي بينهما شفتان حمرا وان كالأورد . يجابان ربنا كالمشهد . تحت ذلك عنق كالبريق المنضه . ركب في سدرها مثال دمية ، متصل به تضدان منمنان لهما مكتنزان شجيا ، ودرانار اس فبهما عظم نحس ، ولا ترفي بحس ، ركبت فيهما كفان رفيف قصبهما . امتد ان شئت منبما الانامل تنأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يحزقان غديا باهما . الى ان فات حين انتهت الى وصف سابقها . وشنتا بشعر أسود . كأنه حلق الزمرد . بحمل ذلك قدمان . كحذو اللسان . فتبارك الله مع صفرهم ، كلف يعينان حمل ما فوقهما «

••••• هم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من فصيدة

ويرين فوديتها اذا حسرت صافي الغدائر فاحم جمع

عالوجه مثل الصبح . بيض والفرع مثل الليل مسود

وجبينها صلت وحاجبها شخت المخط أزعج ممتد

وكأنها وسنى اذا نظرت أو مدنف لما يفتق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لهبط خديجة حظ

منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلا

الفصل الثامن

تراؤها والثراء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما أتاهها الله من الجمال وفضائل النفس . حظ من الثراء أيضا و تراؤها في حياة أبيها وكانت تاجرة ولعل أباهما تحملها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يعجب منه في قومها فهم كادوا يكونون كلهم تجارا . تفضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد و شريعة تربيتهم على طلاب المجد واتساع السوءود ، ومنافسة الاقرب والابعد ، ولولا شفقتهم بهذا لما سمعنا بصدى همهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « نخب عيشنا عيش تعلق جاذبه ، ^(١) وطعامنا أطيب طعام واهنؤه وأمرؤه : القت ^(٢) والهبيد ^(٣) والصليب ^(٤) والعلمز ^(٥) والذآنين ^(٦) والعراجين ^(٧) والضباب ^(٨) واليرابيع ^(٩) والقنفاذ ^(١٠) وربما أكلنا والله القد ^(١١) واشتوينا الجلد ،

(١) تعلق من الفلل وهو الشرب بعد الشرب «٢» القت الفصصة وهي الرطبة من علف الدواب «٣» الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لتذهب مرارته ويتخذ منه طيبخ يؤكل عند الضرورة «٤» الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد اخذ اللحم منها «٥» العلمز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من الور والدم «٦» الذآنين جمع ذؤنون نبت طويل ضعيفه رأس مدور «٧» العراجين جمع عرجون المود من التخل «٨» — «٩» : الضباب اليرابيع والقنفاذ حيوانات معروفة «١١» القد جلد السحلة

خما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، ولا أرخى بالاً، ولا أثمر حالاً، أو ما سمعت
قول شاعر وكان والله بصيراً بريق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مديقةً ^(١) وخمس تمرات ضفار كوانز
فنحن ملوك الناس خصبا ونعمة ونحن أسود الناس عند الهزاهز
وكم متمن عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز
فأحمد لله على ما بسط. من حسن الدعاء ، ورزق من السعة . وإياه
نسأل تمام النعمة»

هذا ما استطابه الأترابي وحده الله عليه هذا الحمد . وما الأعراب
الابشر قد يستطيع غيرهم من البشر ما يستطيعون إذا خلصوا إلى
مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة
ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتساقون إلى ما به
الغبطة من المقتنيات والذخائر . ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنتات
والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الإنسان بسطة من المعارف . وقوة
في المدارك

وقريش كما عرف القاريء كانوا ممن أعدهم الله لعمل عظيم في
الأرض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه ما لم يكن في سابق تربيتهم
وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما امامهم الا المغامرة
في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لا ثقا بمن هم
عتيدون لمثل ذلك ان يقبوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم . ولا عميل نفوسهم
إلى خيرات السماء والأرض الغائضة في ملك الله الواسع . بل اللاتق

«١» المديقة تصير مذقة ، وهي شربة من اللبن المزوج بماء كبير

بهؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله يقول ذلك الشاعر من
أبناء ملوك العرب (امرؤ القيس)

فلو أن ما أسمى لأدنى معيشة كفاي ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسمى لمجد مؤثـل وقد يدرك المجد الموثـل أمثـل
وحقا كانت حال القرشيين ناطقة بتل هذا الكلام وكل منهم له
في المجد أرب فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم
أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفقوا بالافى قومهم
عند الشدائد منهم عبد الله بن جدعان الشير بمجنته التي كان يقدم الفقراء
والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها
وسلح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل
أحد اخوة السيدة «خديجية» العوام ابو الزبير^(١) ومنهم أمية بن خلف
ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قتل فيه «ان صفوان
ابن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه» أي بلغ ماله القناطير^(٢) وكثيرون
غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قريشا الضارين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل
المتاع من هذه البرية واليه على مراكزهم سفن البر ، الفينيقيين الضارين

«١» تحاربت في هذه الحرب قريش وهو ازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة
عش عاما وحضرها مع اعمامه يهيء لهم التبل . وعبدالله بن جدعان سري شهير ومث
كبير وهو من نخذ بني جمح

«٢» أمية من نخذ بني جمح ايضا وقد قتل في وقعة بدر وكان مع اعداء النبي

«ص» اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها ينتقل البضائع من هذا الشفر إلى ذلك على
مراكبهم قلائص البحر . فئن كان لا بناء تلك السواحل رحلتا شتاء
وصيف بين زئير الأمواج ، ومعاركة الأمواد . فلا بناء هذه البراري أيضاً
رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمر الحق قد أدرك القوم أن إخير كل إخير لا تقسمهم وجيرهم
انما هو في أن يخفوا للتجارة لأبها في الأمم أقوى الأسباب المقربة من
البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية . فقاموا بهذا المرغوب نير كسالى
فكان لذلك رحيمهم نظماً من المال ومن ماسكة الاختلاط بالأقوام في
ذلك العصر السحيق والسكان البعيد . وكان بلدهم على هذا البمدعن العمران
المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت
توجه العرب إلى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج إليها العرب ذلك
الحج أن تكون لزم من داراً ، وانما تبسق شجرة التجارة في رياض الامن
وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقته في العام قبيل أيام الحج
ويفدون إليها ليدعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول
يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه
« ذو الحجاز » وهو عند عرفات و « مجنة » وهي موضع بأسفل مكة
و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشأن أن النعمان بن المنذر ملك
الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام إلى
سوق عكاظ جملاً محملة نراً وطبوا اتباع في هذه السوق ويشترى له

بشمنها من آدم الطائف^(١) ما يحتاج إليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب وهذا يدلنا على أن تلك البلاد لم تكن تأتي بالخصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج إلى غيرها حاصلاتها أيضا ومع أن الشام مشهورة بأبنائها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون إليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سلمان بن عبد الملك لما رأى يادره فقال : لله در قيس في أي شئ أودع فراخه : يريد بقرس ثقيفا وكذلك كان اسمه وحسبك أن النعمان بن المنذر كان يرسل بأخذ من أدمها

وتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال إلى الشام وإلى غيرها أحيانا بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازية مما تخرج تلك الارض من نبات وهدم ويرجعون ببضاعة شامية أو غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير طاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة « أم القرى »

ولا يستريح القاريء حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار إلى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح أن يخرج منها وله العذر في ذلك أما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا أكثر منه لثلا ينقطع الحديث فنقول إن تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد . ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للذبح وبعضها للطب وبعضها

(١) الادم بضمين وفتحين الجلود المدبوغة والواحد ادم

للضيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت إلى ذلك ما كانوا يجففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجودها وما كانوا يجففون من التمر والزبيب وغيرها تجد بضاعه غير يسيرة يحمل مثلها إلى أطراف بلاد الشام مما هو إلى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعا حضريا إلا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجندله حافظون، وزراع وصناع وتجار له ماش ضامنون، وقد رأى القاريه أن مجتمع «خديجة» قام بغير مسبخر وجندله فعمسى أن لا تقيس على استغائه عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلا فان هذه الثلاث لا تقوم اتوم بدومها. ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب اقوم «خديجه» منها لا نتمسك به عدم فباخر لهم إلا من حبة أنهم تغلبوا بمدار كهم وهمهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في ادراك شأو الأمم والانبئادس بدواة من بعد أن أوشتك جوار البادية أن يجدبهم إليها كما جذب احوانهم الآخرين

مهم نحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعضوا الحضارة حنبا على صعوبة الوفاء لها بسدا الحق. وترام مع هذا لم يخالفوا سس العرب فيما يأتون منه ويرفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا إليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خاليا (١٠ خديجة)

منها البتة فهناك أودية يجود فيها الزرع والنراس وتجري فيها العيون .
وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

أما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم
كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ما كانوا يأنفون منها . فمنهم من
كان يبيع اللباس . ومنهم من كان يبيع الادهان . ومنهم من يبيع اللحم
ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح . ومنهم من يبيع الرقيق خاصة
وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الانسان المتحضر
من صنوف الاكسية المعتادة . وضروب الاضعمة والاشربة المعهودة .
وصنوف الماعون والاداة اللازمة . والعقاقير المعروفة . والحيوانات المتداولة
والاسلحة الشائمة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السامسة ويقال إن
عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال إنه كان سماراً كما
أن أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق إلى
المتاع الزائد عن الحاجة نرى أن حاجاته التي تحتاج إلى عمل التجار لم
تكن قليلة ونرى أنها وحدها كافية لأن يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً
من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة
الترين منهم لاننا لم نعهد لهم إلى ذلك العهد وجهاً من وجوه المراجيح
ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها نندم هي الذهب والفضة .

والابل والرقيق . والاراضي للزرع والنراس . والاراضي للمدن

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والايان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منبهاشيء كثير. من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدوا له في وطنه (مكة) أدت تصارييف العداوة الى اشتعال حرب بين القرينين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة وكان الضفر لا صحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيرا أفندوا أنفسهم ووزوا في فذه الواحد أربعة آلاف درهم فنكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصرياً من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ما عليه . وما هو بالمقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم : ومنها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أحد ربح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالبا وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك اهدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد طلت النقود الاجنبية الى أيام عبدالملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالمرية

واما الابن فهي أوفر أصناف أموالهم والابن مال كثير التركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغنى والغناء ، والنعمة والهناء : من درها الغذاء ، ومن أوبارها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن بعرها الوقود

للصنخ وكشف الظلماء . وظهرها مراكب للظعن والحمل والنجاه (١)
 وبضونها أعظم بها واسطة للنماء . فبمياشك أيها المطالع في أي صنف من
 أصناف الاموال الحضرية يجد أحدنا مثل هذه البركة ، التي لا تحتاج الى
 شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يمد ما في جميع جهات الارض
 وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرنا النظر عن استهجان
 هذه المادة نرى ان لا شيء أتق من عمل الآلة المتحركة بنفسها الزامية
 بطبيعتها . المدركة بخلقتها .

وأما الاراضي للزرع والغرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً
 ومن منمولى قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة
 (من نخذي بني عبد شمس) وغيرها

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب
 والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حجر ان يصط كان ان اقبلت
 عليهما نقدا . وان تركتهما يزيدا ، ان أفضل المال برة سمراء في تربة غبراء ،
 او عين خرارة ، في أرض خوارة ، أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان
 الموجب لماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض
 التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن
 حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الاس الصحيح في علم ثروة الامم
 واما أراضي المعدن فالظاهر ان بعضها كازمشاعا وبعضها كان مملوكا
 اما كون بعضها مشاعا فتأخذه من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها
 حصى وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التي هي
 حق للخزانه العمومية خزانه المملكة . وأما كون بعضها كان مملوكا
 فنستفيده مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي^(١)
 الذي كان يملك معادن بني سليم . وكانهم لشيوع ملك بعض الناس بعض
 المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتح أن يقطعه شيئا منها فند
 طلب بلال بن الحارث أن يقطعه معادن القبلية (منسوبة الى قبل بفتح ح)
 وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام فأقطعه أيها
 وأقطعه جبل قدس^(٢) للزرع

هذه هي اصناف الاموال التي كان لها ثراء هؤلاء القوم يضاف
 اليها المروض والامعة التي كانت تتداول في التجارة ، والى مثلها يؤون
 اليوم كل ثراء فان ملك الارض والمعادن لا يزال أيضا ينبوعا ثرورا
 للثروة . واستخدام العملة بأجر نخس نوع من الاستعباد والاسترقاق
 اعني أن فائده المادية كفائده . والنقود لا تزال كثرتها وقتلتها أيضا معيارا

«١» الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متروجا
 من قريش «من بني عبدالدار رهط خديجة» وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان
 مكثرا من المال اسلم يوم فتح حير ثم جاء الى النبي «ص» فقال له ان لي ذها عند
 امرأتى «في مكة» وان تعلم هي واهلها بالاسمي فلا مال لي فأذن لي في السرع السير
 واخبر اخبارا اذا قدمت ادرا بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي «ص» وقدم مكة
 واخذ أمواله بحيلة

«٢» جبل قدس معروف في جوار المدينة .

عظما ثروة الامم . وعلى مقدار ماتقدم كله يكون محور التداول للعروض
والأمته والاثاث والرياش

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه أو السفر من أجلها
يعطي من ماله الى آخر على أن يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه
بالربا وكان معهوداً فيهم أو يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة
فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بانء اجرة أو المضاربة
بذلك لم تصعب التجارة على السيدة « خديجة » التي كان لها ما لنساء
قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لأبيها ولا اخوتها سلطان
في ذلك المال الذي كان تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيا
وفي إثار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار
بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها وعلو همتها وعظيم
عظفها وحناها على وطنها فان الاوطان تسمو باقدام أرباب أموالها على
نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واطهار صنوف الثراء . ولا يكون لها
مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود^(١)

(١) دهل الكاتب طيب الله ثراه عما هو أهم من ذلك وهو ان الثروة الوطنية
انما تكون بما يرحم أهلها من حارج البلاد لا بما يتداول فيها . والنبوع الاعظم
لذلك هو التجارة، وما امتص الأفرنج ثروة أهل اشرق إلا بالتجارة فيه ولولا
التجارة لم يكن لمصنوعاتهم ربح من بلادنا . وكتبه محمد رشيد رضا

الفصل التاسع

نور مهرا قبل النبي ﷺ

تزوجت خديجة قبل النبي (ﷺ) مرتين تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي . وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي إن الرجل يخطب الى الرجل بنته أو من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . وأما ما يدكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم ، وإنما يفعل أغلب ذلك الاماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من أبي هالة وسمته « هنداً » على عادة العرب اذ كانوا يضعون للدكور أحياناً أسماء الاناث فهذه هاوريب النبي (ﷺ) أخو هاضة لأُمها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ﷺ) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي ﷺ وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لانكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لاندع شيئاً مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولا سيما بعد إذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا للذكر ولدها هذا فكاد يضيع ونحني إلى أعلى المنقيين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك أنهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها
بزواج النبي (ﷺ)

وان لنا - والحق يقال - حقا على هؤلاء الناس الذين يريدون أن
يدرفونا بشخص ممن مضى فيمسكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقصونه
ويجذبونها إلى شيء آخر

على انني لأنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى ابصيص السراج
مكان فمن ذا الذي يعلم أن هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد »
ﷺ وولدت منه « فاطمة الزهراء » أمّ الحسين ثم يرجع باحثا عن
ابنها ذلك من زوجها الاول أبي هالة ،

لعمرك اذا وصلت بسيرتها إلى هذا المقام نضاءت أمام نظرك كل
ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك إلى الاطلاع على هذا الشأن
الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رزق الكون
كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها
في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن
الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفيض نوراً وسناء ،
وليتبارك كمالاً وبهاء



الفصل العاشر

محمد عليه الصلوة والسلام قبل نزوح هجرته

وإذا العناية صاحبت مرءاً فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد إن أتاك حديثه مها حوى مها نما مها سما
لاتسأل كيف أبدع الانسان من فتق الكواكب من رتق موادها،
وقدر مدارات لحر كاتما، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المقسمات الينا
ونهارنا، المدبرات صيفنا وشتاءنا. الناظمات في أحشائهن شملنا، الماديات
بنسأمن نسأمتنا، وبأرواحهن كياننا. ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعاً
شرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلاذها. قد حصرناها
على عظمها في يدنا، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا. إن شئنا
نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش
الباينا. ويسحر أبصارنا. وإن شئنا لم نعبأ بها، واستشرت نفوسنا إلى
غيرها. فاطلعنا إلى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارك الاسرار
ومغاربها، وارتفعنا إلى ينابيع الأكوان ومظاهرها. وتلهنا بحياة لا
نحتاج فيها إلى ماء الأرض وهولها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الانس وتباددت حقائقنا
ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشمت نفوسنا
بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالقنا في تمييزها وترجيح

بعضها على بعض - وتدبرنا في مناهج خلابها . وتفاضلنا في سبيل اكتسابها ،
ولم هذا البون في العصبائنا . والتمرق في مرامينا . والبعد في مدارجنا ،
والغبين في مدارجنا .

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم ساحة في أفلاك الخفائق ،
وروج الرقائق والدقائق . ومع الاوار سيره منشرة في سابق الدهور
ولاحفها . وبادي الشعوب وحضرها ، وآخرون مع الديدان مشانهم
دابه بين أورا الآجام وأحطابها . أو تحت دخان القمار ونقعها ، ومع
العصف صورهم منظوية في احشاء الاواكل ، ومندرجة في الاواخر مع
اخوانهم الاوائل ؟

لاتسأل عن هذا كله إن كانت نسك قد وقفت عند طعامها من
معرفة الاول الآخر . الظاهر الباطن . ذي الحياة الازلية الساري
سرها في الاكوان والوجودات ، البادي خط جلالها وجمالها على لوح
الآيات المينات ، من الاشكال والتنوعات ، (ومن آياته أن خلقكم من
تراب ثم اذا أنتم بشر تنثرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم
أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم
يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسننكم
وألوانكم إن في ذلك لآيات للالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار
وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم
البرق خوفاً وطمئناً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها
إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض
بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون)

إذا وقفت نفسك عند هذا المطآن من المعرفة فلهذا تصل بك إلى معرفة أن ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استمدادنا أن نخطئ بأسرارها خبيراً معها حامت حولها آمال مدار كنا، وهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا. فأخلق بأحدنا أن يذكر في هذه انساح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا إلى مادون هذا السر الاعظم. ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة إلى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على ما يختص بهما من يشاء فله الامر كله فيما يبدي، ويصور. وله الحكمة فيما بنوع ويميز. منه كل شيء واليه المآب

وإن كنت في ريب من الحكمة الازلية. والعناية السرمدية. فدع نفسك واقفة ماشاءت في غمة النفي. أو دائرة في سجن الشك. أو طائفة في جو الوهم لا قرار لها. وانما نحكي هنا للذين هم برهم يؤمنون

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة إلى أقوم سبيل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي اعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب (١) من كبار أشرف قريش ورزق عشرة أولاد

«١» اسم عبد المطلب شيبه وتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشما =

من الذكور وكان ابنه ءدالله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بنى زهرة تدعى آمنة حملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدهاجده وكان هذا الوليدالمبارك «محمدآ» صاحب القرآن فما أسعدك يا عبد المطلب أ كنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذي لك مما استاقه من ابل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعتاق الملوك في الاجيال المقبلة خاصة لذكوره ؟

أ كنت تفكر إذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنتظمين في تلك البرية أن اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كما ذكر سب حفيدك العظيم الذي ائتمده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم إلى الابد ؟

أخطر على قابك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه إلا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعا لما جاءهم به حفيدك من الهداية ؟ أ جاء في خلدك أن كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم، ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم، ويقيم لهم مجداً مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً ؟

= كان قد تزوج امه من بنى التجار في «يثرب» (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجراً فخرج بتجارة الى الشام فأت في «غزة» فذهب اخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بان اخيه فأبت والدته ان تعطيه اياه حتى اقنعها بأن اقامته في بلده وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على ابيرفظنت قريش انه عبد اتباعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم انما هو ابن اخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له.

هل كنت ملها إذ سميته محمداً، وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له
العالمون تحميماً لا ينقطع . وتمجيداً لا يزول ،
أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك إياه وعنايتك به إنما
كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاهم الله من كرمه . والوديعه القدوسه
التي اختص الله بيتك اظهورها ، وقومك لانشار مبدئ نورها ؛
فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالده جدير أيها المخصوص بعناية
أخي الأزلي . فليدم ذكرك جمالا المحافل . واسمك سامياً مع اسم حفيدك
نبي الشعوب وبركة العالم

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة
والسلام أي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة
والاربعين من ملك كسرى أنوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني
الامم ونوارخها ولا سني أنفسهم وإنما كانوا يحفظون الاعمار ويوقنون آجال
الاشياء بنواقع الشيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين إلى عهدنا
ولدعام الفيل وهي سنة اشتهرت بهدا الاسم له وقوع حادثة فيها عندهم تدور
صفوة حكايته على حرن فيل القائد النجاشي وإبائه امسير تلقاء مكة فلذلك سميت
بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح أن نقول إنها من التاريخ
المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على أسلوبه في
التقصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونمثلة الاخبار
وقد أعطي لمرضعة على عادة قريش في اعطائهم الاولاد للراضع
من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء أن تترى أجسامهم في البادية حيث
الأرض النظيفة قد كسيت من الازاهر أبداع النمارق الطييعية والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه إلى النفوس رائحة وعادية

إذا بزغ رأس النهار أرسل إلى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بطيب عقي العمل ، وسوء منقلب الكسل ، وكأن بينه وبين سكان البراري وساسة الأنعام عهداً أن لا يقبل بطاعته الباسمة إلا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسمهمهم ، وثغور اجتهادهم ، ورافعون إليه آيات الشكر على ما له من الايادي البيضاء في اخضرار تيشهم ، وايضاض وجوه آمالمهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر تديهما البشر ونفذت النبتة من أعماق جوانحهما إلى أسارير وجهيهما ، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم ، ولا أوتقت رياضهم ، ولو لم يصن الوادي لهم القليل مما أغيشوا به مرة لقتلهم الظأ - ولأما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم ، لانهم لم يكونا يملكان إلا غنيمات قد جارت عليها السنة ، وقتلها الجهد والجدب ، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فلاتهما فرحاً ، وأشبعتهما ابتهاجا ، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا يتغذيان به صباح مساء ، ويجددان به شكري أعلى هذه النعماء ، وهذا ما كانا يتحدثان به :

- حقاً يا حليمة إنك قد جئتنا بتخفة سنية ونسمة مباركة

- أي والله يا حارث وانظر ما أجمله ، انظر إلى هذه الاشفار الهدب انظر إلى هذه العيون الدتج ، انظر إلى هذا الجبين الازهر ، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صديحة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بنخفيد عبدالمطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت:
خرجت مع زوجي وابن لي صغير عن أنان لي قرأ^(١) «منا شارف^(٢)»
لنا والله ما تبض بقطرة ، وما ننام لبنا أجمع من صبينا الذي ، منا من
بكائه من الجوع ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغديه ، ولكننا كنا
نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك ففقد أذمت^(٣) بالرك
ضعفا وعجفا حتى قدنا مكة نتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فناما اذا قيل لها انه نيم وذلك انما
كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا ننول تيم وما عسى أن تصنع
أمة وجده ، فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت مني الا أخذت
رضيعا غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي «والله اني لا كره أن
أرجع من بن صواحي ولم آخذ رضيعا والله لا ذهاب الى ذلك اليتيم فلا خذنه»
قال لا عليك أن تفعل عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت
اليه فأخذته وما حماني على اخذه الا اني لم أجد خيرة . فات فلما أخذته
رجعت به الى رحلي فلما وضعت في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من
لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام
معه قبل ذلك . وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل^(٤) حلب منها ما
شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعنا فبتنا بخير ليلة قالت : يقول صاحبي
حين أصبحنا تعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت فقمت
والله اني لا رجو ذلك . قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته على يمي فوالله

(١) القمره بالضم لون الى الحضرة او بياض فيه كدرة . حمار امر واران قرأ .

(٢) «الشارف الناقة المسنة» (٣) اذمت بالرك اي حبستهم لا يقطع سيرها من عجبها
اي هزها وضغطها ، واذنت الركاب تأخرت من الكلال . وأصله أت ما تدم عليه

(٤) «حافل كثيرة اللبن»

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرم حتى ان صواحي ليقلن لي
 « يا ابنه ابي ذؤيب ويحك اربعي دينا (١) أليست هذه أتانك التي كنت
 خرجت عليها ؟ فأقول لمن بلى والله انها لهي . فيقلن والله ان لها لشأنا »
 قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أتم أرضاً من أرض
 الله أجذب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به منا شباعا لبناً
 فحلب ونشرب وما يحلب انسان قطارة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان
 الحاضرون من قومنا يقولون لربياتهم ويلاكم اسرحوا حيث يسرح راعي
 بنت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جباناً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي
 شباعاً لبناً، فلم نزل نعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفضاته
 وكان يشب شبايلاً يشبه الثلمان »

فيالك من سعيدة يا حليلة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيته العناية
 الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك وويلكن أيتها
 المراضع الغيبات المعرضات عن اليتيم التماساً للرضعاء الذين لهم آباء . لقد فاتكن
 الحظ وما الحظوظ بالاختيار، وجزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتاماً

بعد ان ربي « محمد » (ص) في بني سعد عند السعيدة حليلة جيء
 به الى أمه فذهبت به وهو ممتليء قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة
 لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان
 يسمى الابواء . وكان عبد المطاب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو
 الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقاً هذه الدار، واودعه لدى الجناب
 الالهى الذى من لدنه واردات البر والبركات اليه، ونوافح الأفة والحنان عليه،

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وثقيفه

وكان أبو طالب امرأً نبيها شهماً صادق المروءة ماضي العزيمة نصاراً للعدل والانصاف. عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة، ومن مواقفه أمام قريش في نصره والدود عنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في روج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التريية (ابو طالب) نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما صح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ولكن لماذا نقول ان اعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به^(١) أما تربيته اياه التريية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لانظاير لها، وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله. ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التريية الجسدية

(١) ان جل ما ذكره المؤلف رحمه الله في الفصل استنباط من قريحته ليس فيه شيء منقول ينبت ان أبا طالب كان ممتازاً بما يذكره من شؤون التريية يتوخاه في تربية ابن اخيه بحيث ينسب اليه ما امتاز به (ص) على الأتراب وغيرهم ومنهم اولاد ابي طالب وقد بالغ الكتاب فيما ذكره فيه من تلقينه انواع الدروس التجارية والاجتماعية في استصحابه اياه في سفره الى بصرى من بلاد الشام وهو ابن ١٢ سنة وقيل ابن ٩ سنين

وأما تربيته إياه التريية العقلية فكانت جديرة أن يسجدوا أمها فلاسفة النفس و أساطين العقل ، وهناك من آثارها قبل النبوة ما يحلمانا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المتعددة في دارها عن مناشي الارتقاء العقلي ، و مناجم الاشراق الفكري ، لا كتب يدرسونها ، ولا قرانين للمعارف يرتبرنها ، ولا شيء الاثرية يتوارثونها ، وقرء اعدامة تة : اقلونها ، وحصافة أو توها في نقش أصح التجارب في المدارك . والاحتفاظ بأثبت النوائد في الذواكر وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية : ينشئرن الدرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل ، ودروس التصدوالاعتدال في مدارج الامل .

فأتى من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق ، أفداذ في الهمة والاعمال طبع من المرين ، ونقش من المثقفين ، وذلك كان شأن ابي طالب ودأبه مع ابن اخيه العزيز . وريبه النجيب ، نشأ « محمد » (صلوات لله عليه) في امثال التربية بانواعها كلها على يد ذلك الماضل العظيم فجاء منه رجل أحسن الناس خلقا وخلقنا ، اذ كاهم عقلا ، وازكاهم نفسا ، وصدقهم لسانا ، أنداهم في العرف يدا ، واثبتهم في الازم قلبا ، أرحمهم للضعيف ، وأشجعهم على القوي ، أبرهم للقريب ، واعدلهم للبعيد . أقربهم الى المروف سما ، وابعدهم في الامور نظرا ، أسدهم رأيا واشدهم اقدما ، اليهم للصاحب حنبا ، واکرمهم للخير صاحبا . وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين ، وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم ، فراه جمالا وجلالا وكالا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأ ذلك المرابي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثني عشرة سنة سار به الى الشام وكان ابو طالب تاجرا فارقه في هذا السفر

علي ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة ، واحوال العالم المتحولة . ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل امم كانت فبانت . كانوا على وجه الارض جمالا لها فلما فسقوا من السنن التي يحياها الامم ضالت نعماتهم طرا . ودارت نعمتهم جميعا ، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فلذلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا » وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخالوة او المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من العوائد : وان قد كان فيما أوحى الى هذا اللزم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه (أولم يسيرا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودسا كرها . ومزارعها ومصانعها ، ومتاجرها وحكومتها ، وأراه كيف يكدر الناس جميعا لياكل نفر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع نفر آخرون بثمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس مآثمها تلك الايدي الثقفة . وكيف يعمل الهدا في الاجتماع ليم قوامه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزامحة في هذا الحظام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني ، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما يقي البدن من جوع وعرى ، وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها ، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في « بصرى » وقف به على الراهب « بحيرا »

وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مره على أساليب التجارة ، وأطلعه على ضروب البضاعة ، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ما ليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التريبة العملية ما ليس في ألف درس من التريبة الكتابية او النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار — وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس — فرأى في هذه الواقعة كيف تعبا الصنوف وتقابل الأبطال وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم ، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبنا وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وانما كان ينبل على أعمامه أي يناولهم النبل أو يردد عنهم النبل. وكان ذلك كافياً لتمرنه على مواطن النزال ، ومواقف النضال وليس بخاف ان الاخذ بيد الناشيء الى معارك أبطال المبايعات ، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال ، حتى اذا أتاحه الله للأخذ به يوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والفلاح ، كان ثم الدليل الهادي ، ونعم السائق والهادي

فلما بلغ خمسا وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا «خديجة» ان يخرج في تجارة لها الي الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطاب له أضعافا فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الي الشام ومعه عبد لخديجة اسمه «ميسره» فلما رجع بالبضائع اليها بادتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة «خديجة» معه

الفصل الحادي عشر

الحب الشريف

ان أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة إلا من خصائص النفوس، فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تفتقر نظرات بصيرته الي النفس فهي مستقر الخوارق، ومستودع المعجائب النفس مجلى الآيات الكبرى ومهيبط الفيوضات العلى، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والابد، والمطبعة العظمى التي ترسم بها الاشياء وتكثر الصور،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبايع، ومقيم الشرائع، وبين الجواهر المتألفة الصامتة، والظواهر المسخرة المطيعة، فهي خليفة عليها واقفة على خطواتها، مشرفة على حركاتها؛ وهي مجذوبة من طرف اليها بمجاذبية الانس والمادة، ومجذوبة من طرف آخر الي مصدر بوارقها بمجاذبية الحب والشوق، فبإنجذاب النفس الي الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف، وبإنجذاب النفس الي مانع الظهور تأخذ النفس

حفظها من الشهود والاشراف ، فيحق لها في الحاليتين أن تتمجد بما ميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبنفص بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نوايس الاكوان والوجودات كلها ، لكن اختلفت المحبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الالسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذي تدور فيه ، ولاتصالها بعالم الخس وعالم الغيب وتردها بالانجذاب بينهما ، فهي ان وقتت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى البدع دهشت فتولعت فتدلعت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرغبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتناع والهبوط . كل ذلك من مبدعات الحب والبنفص وآثارها . وكل درجة من هذه الاشياء فانما هي على مقاييسهما . هما بالاختصار ركنا السعادة والشقاء . فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبنفص الشريف حظاً من الخير عظيماً

كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف ، فماذا أحببت سيدتنا هذه ؟ كان قلبها تواقاً الى معالي الامور ، عظم الشغف بمحاسن الاخلاق . وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيماً

فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأر الفضائل هي التي تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها ، وانفتحت أنوارها ، فكان لها تشوف إلى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية ، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور ، فكانت تهتدي بها فيما هي حائمة الروح (١) عليه من الفضائل ، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله ، فلما عرفت ابن عبدالله ووجدت فيه ما يعشق من المزايا العلية ، انتشرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتثبت شوقاً إلى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه ، وأيقنت أن معرفتها هذا السعيد عزايه العظيمة ، هو أعظم الآثار التي كانت تشوف إليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت حبة الفضائل والمحامد أعظم من تتجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها ، بل كيف لا يميل اليه فؤادها ، فالامانة هو ذلك الشير فيها ، وقد سبرته في متجرفها فرجت بواسطته أضعافاً . والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب . والنباهة هو الذي تسطع في محياه طوالها . والحكمة هو الذي تقرأ في سماه آياتها . والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها . ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها .

(١) اي فيما كانت رووها حائمة عليه . ومن العجب غنور قلم الكاتب بهذه

العبارة ثم سكوتنا له عنها

فأيّ الفضل تنشد بعد هذا حبة الفضل . وأيّ المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؟ كمال خلق وكمال خلق ، جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثها أقرانه من الشبان ، ووقار لم يحظ بأقله الكبار ، وهمة لا تقف أمامها الصعاب ، وعزيمة لا تاتي أمام الثقال . قوي شديد - حلیم رشيد ، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل اذا قاله الحكماء عند التفاضل ؟
 حلیم رشيد عادل غير طائش يوالي إلهاماً عنه ليس بنافل
 لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
 فأصبح فينا أحد في أرومة تقصر عنه سورة المتداول

فما أكثر غبطة السيدة « خديجة » إذ عرفت هذا السيد الجليل ! وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به ! وما أقوى نور فراستها إذ علمت أنه لا نظير له ! وأن سعادتها لا تتم إلا به ! وما أحقها أن تعتم الفرصة وتسبق إلى تزوج هذا الشريف الذي جمع إلى شرف النسب شرف الخلال (١)

(١) مما يدل على أن أمها في نبوته كان عظيماً ما رواه الفاكهي في تاريخ مكة من حديث أنس وهو الخبر الوحيد الذي روي في حبها الشريف للكمال الأعلى في شخص محمد (ص) ولو اطلع عليه المؤلف لا ورده وهذا نصه :

روي الفاكهي في تاريخ مكة عن أنس أن النبي (ص) كان عند أبي طالب فاستأذنه أن يوجهه إلى خديجة فأذن له وبثت بعده جارية يقال لها نبعة ، فقال انظري ما تقول له خديجة ، قالت نبعة فرأيت عجباً : ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرتها ، ثم قالت بأبي أنت وأمي والله ما فعل هذا شيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سببت ، فان تكين هو فأعرف حقاً ومنزلي ، وادع الإله الذي ييمتك لي . قالت فقال لها « لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي ما لأضيقه أبداً ، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً ، ويؤيدها ما وردني كيفية بدء الوحي في الصحيح وهو أن خديجة

الفصل الثاني عشر

تفاوض هزافه

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة الى زماننا هذا، وكان علماء التوراة ينبشون دائماً بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول إنه سيظهر من العرب. والراهب مجيرا تفرس في ابن أخي أبي طالب إذ كان معه صنيراً وقال له : سيكون لابن أخيك هذا شأن . وما يكن بعيداً عن المؤلف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونو يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس . يكونوا يبالون بتلك الاخبار لأنهم تودوا أن يروا شيئاً . من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحياناً فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تاماً ولا سيما في الامور العظيمة

قالت له حين خاف على نفسه عاقبة ما أصابه من الحمد ، عند ما ظهر له الملك « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وكذا ما ثبت من انها كانت تعد له الزاد لينقط، الى الصحنت في غار حراء . ودوى الواقدي بسنده الى نفيصة بنت أمية اخت يعلی قالت كانت خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال . ولما تأملت كان كل شريف من قر يشرب بمعنى ان يزوجها فلما سافر النبي (ص) في تجارتها ورجع بربح وافر رغبت فيه فارتأت و دسبها اليه فقلت له ما يمنهك ان تزوج ؟ فقال « ما في يدي شيء » فقالت فان كفيتم ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ قال « ومن ؟ » قالت : خديجة ، فأجاب

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيدهن في الجاهلية إذ تمثل لمن رجل فلما قرب نادى بأعلى صوته بالنساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استنطعت منكن أن تكون زوجا له فلنعمل . فكذبته ورمينه بالحصى وكانت فيهن «خديجة» فلم ترمه كما رمينه .

لم يكن هذا النبيء كاهنا معروفاً لذلك احتقره النساء لأنهن لا يعبان في الغالب إلا بأهل الشهرة . ولكن كان قومين يعتقدون بالمخالف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو تمثل بصورة بشرية فيقول قولاً من هذا التمثيل ثم يغيب . فكانت السيدة «خديجة» اعتقدت أن هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه تراثبها ولعلها صدقت إذ ذلك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذا الحظ

وإن صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دلائل جديد على عظيم تطلعها إلى بركات الجناب القدسي فإن الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم إلا من العارفة بذلك الجناب الاعلى الذي يتفضل بخدمة النبوة على من يشاء كانت النبوة معروفة عند قومها مما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني إسرائيل ومعروف أن النبي رجل كالرجال ولكن يصنفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلمه على ما لم يطلم عليه أحداً من أسرار عالم الغيب . وليست النبوة ملكاً أو حظوظاً زائدة من نعم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا . مقاومة الناس إياهم وتعذيبهم ، والنساء إنما يرغبن بالنعم والرفاهية وزغد العيش وكثرة الحلل والحلي ، وكل هذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تنصرف أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى ما فيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة

من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع بعدها « مبصرة » من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي « محمد » أخبرها بأحوال غربته وآها منه لا يكون أمثالها إلا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رن في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بانها ، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كات معهن في العبد : وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات

﴿ تفتاؤل هذا وقته ﴾

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب خديجة

كات (خديجة) تعرف أن ليست النبوة بالسكسب والاجتهاد وانما هي محض قضاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كات تعيد على خواطرها ما حكاها بعدها (مبصرة) ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف ؛ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مر بقلبيها خاطر آخر يقطع دليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام — التي كات تراها في اليقظة — ترجع إلى الشيء المحقق

الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجبى وهو ما يحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال . فتمثل في فكرها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامه ابرق من تلك العينين الدعجاوين . وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق . ويقوى إيمانها بالملائكة إذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة . فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قریش الوحيد الذي كمله الله إن لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

نم تترجع اليها الخواطر وبقلمها ذلك الحب الشريف الذي تمت حبته في قلبها على ضروب من الخيرة فتقول في نفسها مرة أخرى : من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي ، وحامت حوله خواطري ، ودككت في ذاكرة محاسنه نفسي ؟ أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها ، وما أظلم قضاءها ، وما أشد عتمة مسالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها ، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزون عنها !

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار . وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر فانطلمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين . ونمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف تم أف للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم . أو تذرهما في سجن أقر ممنوع عنها كل ما يربها . وياعجباً لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكيم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم ، أليس لهم ما يذكروهم بأن العادة من صنعة

أيديهم وتصوير أعلامهم، أليس لهم ما يبصرهم بأن العادة يجب أن تكون تابعة لامتبوعة، ومنقادة لاقائدة، حتى إذا فتحت أمام بصائرهم أبواب آخر لما هو خير ودعوا عاداتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت، ومذمومة على مبلغ ما أضرت، استقبلوا أخرى مصاحبها على مقدار ما يدوم من أسبابها، وينفع من أبوابها

ترمت « خديجة » بالعادة كثيراً، وتأفقت من تقلبها طويلاً، وسردت كل سيئات الجود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج. لما خصها الله من سلامة القطرة، وفضل القطنة، وقوة آلة المعرفة، ومزيد حرارة الهمة.

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الاكثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت، وأحوال مضت، ورأت أن الناس يرون من السالفين كل شيء ولا يميلون إلى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميله شديدة على يد عاصف من الحوادث، أو هبة شديدة من ارادة بعض الاشخاص، وكم دكت الارادات القوية أطواداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجرد بأساً بأن تخطبه بنفسها لأنها كانت قوية الارادة. ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر وهو في الخامسة والعشرين يشف بحياه عن ماء الفتوة، وينشر شذى الشباب، والمرأة معها قويت ارادتها تنذر الخيبة فيقلب إحجامها إقدامها وهذا بمض أسباب العادة في أن تكون هي المخطوبة مأصعب الخواطر على المرأة التي تجرد ضالتها من السعادة ولا

تستطيع الاقدام على تحصيلها ؛ هي صعبة على الرجل أيضاً ولكنها على المرأة أصعب لأنها أضعف على كل حال . بيد أن ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به نمت نعمتها وعلت كرامتها لديه . فتوة الخنز والحياه من ضعفها . وذلك أعظم حلية طبيعية تزداد بها . ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمت المرأة . واجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحياتها ، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد أن كان حبة صنيرة أقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد ، ولم تقدم من صخر ، إن نسيم الخواطر فيها يصدع إن جاءها برائحة اليأس ، ويرأب إن أتاها برائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائية ، بيد أن رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة منها إذ ذاك لا قلب رجاؤها يقيناً . ولكن انستكمل الفرائز حظها من النفوس كتب على الانسان أن يغيب عنه آتية من السعادة والشقاء فترى منحوساً يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه يائناً ، أو يصبحه وساء صباحاً . وترى مسوداً يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجما سادما والسعادة من حوله مرفوعة بأجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها يته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك إلى هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها ، ما أشد حاجتها إلى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أُنعت لذلك الذي ميزه العناية الازلية أكمل تمييز . والسكن ايظهر مزيد فضلها في الليل إلى رب الفضائل والمكارم التي لا تبارى حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت الخواطر حفظها من قلبها الكرم . وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف ، اذالك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها إلى بعض . وكان جديراً أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض ، مني الانسان كيلا يكون بنو آدم وحواء انقص من الجمادات حظاً في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من « خديجة » الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة أن تتناول هدية سعادتها ، وتكشف لها الحجب عن الرحمة التي ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعالیه فؤادها رسولا تسبر به رغبته وتستنبيء به سعادته مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن ؛ وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنّها بان هذا

للكمل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتئدها في سواها كانت لها صديقة اسمها (نقيسة) (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها واثمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الأمانة لأنها ستكلم كأنها صاحبة رأي أشير به حتى إذا وجدت مجالاً كانت وكيلة بإبداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكن ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول (خديجة) محتاجة الا لشيء من قوة الجنان امام ذلك المييب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ما شئت في تيسير ما يرجوه جادت (نقيسة) هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك ان تزوج ؟ فاعتذرها بقلة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال لها ومن ؟ قالت له (خديجة)

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ما سيبدو منه، وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة، هي المناسبة، هي الموافقة، هي الصالحة، اذهبي يا نقيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيية في هذه الرسالة. فانه يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها، ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبد العزى « هو الفحل لا يقدر أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفو الذي لا يرد إن خطب

ما كان هذا الخاطب الكفو غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة بيوتهم بقري الضيفان واناعة اللهفان في هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المراج بما أوتوا من الصم والشعم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المعدمين وإنما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقداراً كبير . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات ، ولا تلاوة الرؤساء صلوات . بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل . فخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخطاب . وهكذا أصبحت (خديجة) الطاهرة زوجة (محمد الامين) بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

الفصل الخامس

بيت فريجة بعن الزواج

وبدأت السيدة « خديجة » بعد هذا القران السعيد ترداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله لها فألقت الى يدها الامين بكل ماملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والعائل فان سيدتنا لم تكن — مع تديرها — بالشحيرة الكافزة على المال الثاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على

الجود وهل بعد معرفتها بهذا الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأياً يباير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان تزداد كمالاً كلما أشرق لها من سماء الفيض الآهني نور منه وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأماناً - فقصدته الايامي ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احياناً تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لانسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للموسرين أمر تقضي به الانسانية اكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين الشكوك والاوهام التي تنهى عن الاتفاق خشية الاملاق ، وأما سيدتنا فكانت ترى إتفاق زوجها ومساعدته للموسرين وأخذها بيد المائليز من جملة المزاييا العالية التي تقر بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة محوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح وكان هو لاهياً عما أعد له ، وعابثاً بمثل ما يعبت به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتما بل كان أبوه حياً واكن أبناء السعادة - أبناء المجد الابدي - أبناء المجد السرمدي - تستأثر العناية الازلية بكمهاتهم وترتيبهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد لم يكن أبو هذا الصبي ليسمع وهو حي أن يتربى كالإيتام في غير بيته لانه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير «أبو طالب» ولكن اشتداد

الأزمة في إحدى اللسنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الأمين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه فكان هذا الأسد الذي أخذه الأمين هو علي الذي صار الامام أباً الائمة ،
 « بدر سماء السيادة في الامة

كانت تربية علي في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة « خديجة » من

حسن الحظ فان الغيب كان يعده لامر جميل له علاقة بهذا البيت
 اعلمه لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي بدرج
 امامهم فسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم . ومن أين كانت
 تعرف السيدة « خديجة » أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وان هذا الصبي
 الصغير قد أعده الغيب ختنا كريماً وبعلالصالحتها الصغيرة . وكيف تعلم
 أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء ، وانى يخطر
 في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جداً العترة تتصل بهذا البيت سيدها
 العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية
 المنار ، عظيمة الشأن ،

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا

القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم ! نعم ! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيده هذا البيت مكافأة
 عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل
 يوجد التضامن ، ولكن كان هذا البيت المملوء نعماً يتقاضى وجود نفوس
 كثيرة تشاركه في تلك النعم ، لأن لأهله نفوساً لا تعرف الاستئثار ، بل
 تراه من العار والشنار ، لاسماً اذا بئس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فأما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح ، كما كان مسعداً للشباب ، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبياً قد كان مهدياً لا أكرم الآداب وأعلاها ، فإن تلميذاً المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الأكبر الخليق أن يكون مثال القدس وزكاه النفس ، هو جمع المعالي وامتقى الاسرار العظمى ومظاهر الولاية الكبرى فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته ! قد رأينا الامين يجديه مجالاً للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد سدورا رحبة ، وأيديا مبسوطة ، ولديه خيم الجود والسخاء ، كما خيم العدل والوفاء ، ومنه أشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك ياترى ؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه صعبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته ، ولا بسو ثوب الهداية رأس ملهم الدعوى ، وما حيلة الخائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى ؟

هنا زبأ جليل تحمار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه وحده ورسمه ، هنا قد باننا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بها كان من

دأبه أن يتعبد بمض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه حراء فما هذا التعبد؟ وكيف هو؟ وما الذي ساق نفسه اليه؟ وأي دين فرضه عليه؟ هذا هو النبا العظيم الذي تمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه، واذا أخذنا بايضاحه نخشى أن نبعد بالفاريء عن سياق السيرة ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكاياته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

إن الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعلم السيدة « خديجة » لم يكن تابعا اذ ذلك لدين لأن دين قومه كانت تبادته عبارة عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعلم هذه السيدة يأتي في غار حراء بعلم روحي تتوجه فيه روحه لقاء باري السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب إذ ذلك اليها، ولم يكن مقيا أعمالا رسمية

إن البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلفه شرح اللغة، والبحث عن أسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلفه شرح التاريخ. وأما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في « حراء »

فكاف به كتاب سيرة السيدة « خديجة »

العبارة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة ذاتية الى السير في هذا البحر العظيم قد سمعنا في سير قزوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الأرواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نعرف بالروح ولو قبالاً فماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن نعرفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر شبيهه كل امرئ لان كل واحد منا مختار في بله هذه المسألة :

مانحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعد نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم، وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة، وأحد الاصول والاسباب في ترقى هذا النوع الانساني وتكمله هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يتسدىء مجراه لأجل إدراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال اذ لا براهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه . ولكن اذا عزت هذه البراهين لا يمدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات، ومن فضل الله على أهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء، ولا يجرمه الا قليل ترمز فيهم الحيرة لا سباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملئت آيات فاذا حالت دونها الحجب لج العقل في محارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات ، انها لمن تأمل مراتب وصفوف . ولكل وجود قوة ولكل قوة أثر . واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها ، وبارزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ملاح له من وجود وضم المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها إلا بعدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عاداته الى أسماء . فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشدت تباينهم وحر نظارهم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسمي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

نحنت كالباحثين . وحررت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما أذها على القلب من حيرة عقبها بلوغ الغاية والمجد لله رب العالمين

البك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأنني وايد هذه الساعة ، لانني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الاكوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والالوان ، ولم أكن أشعر بملائماتي ومؤلماتي . فكأنني كنت غير هذا الوجود الجديد .

أين كانت لذتي برؤية هذه القبة وأنسي بما على هذا البساط؟ وأني
 كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواجر هذه القبراء ... ومن حولي
 الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، واريح زهور ، وبدائع نقوش ،
 وترتيب صنوف ، وحر كات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال
 من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني
 فسمعتني أقول (سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا)

سبحانك يا فاطر يا باري ، يا مصور ولك الحمد ! أنا متذكر الآن أنني
 أبصرت هذه المراثي ، وسمعت هذه الامالي امس لما بزغ الفجر بزوغه
 هذا فأين ذهب إبصاري وسمعي بين زينك الابصار والسمع اللذين كانا
 أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتيانني الآن؟ وأنا متذكر أن
 هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة الوفا من المرات فما هذا الاحتجاب ثم
 الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل أن عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا ؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب !
 لعلها لا تسمعي ، أو لعلها لا أسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل ،
 وكيف أصبر على جهلي بشي ، يتعلق بي ، وكيف لا أبحث عن اصل احساسني
 وعن احتجابه ؟ ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات
 ورقها ثم يعود ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا ، أم أمره كأمر
 هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يفيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزال أبدا ؟
 كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص
 والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض ؟ كلا مسائل ثم كلا مسائل !

رفعت رأسي الى السماء فألقيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به الى الارض فألقيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي ، لا أعرف له ساحلا وحداً ، تارة يفيض نورا ، واخرى يحتجب بالظلمات ، أراي وأرضي محولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا اسما وضموها له لا تشرح كتبها ولا تؤذن بدلالة كافية تتلاعب فيه السمات لعلمنا ناسية أن الامر جد ، وما هو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنها تحسب ان في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب !

بينى وبين كل ما هو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ ، فهل بزغ هذا النور لا عرفها أم لتعرفني ، وهل كانت لي أم كنت لها أم كنا جميعا لهذا النور أم كان هو لنا ، ولكنني أعرف يا نور انه لولا لك لما عرفت شيئا سلام عليك ايها النور ! يا حاملانعمة المرنة اليانا ، وشكرا لمن تسبح ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست ادري كيف عرفت ، قد نقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماي ، فهذا اليم الذي يبع الآ ن أمام غرفتي اصبح لاشيء عندني على اتساعه لانه محدود وهذه الشمس العظيمة التي بدأت تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في عيني لانني احطت بها ، وهذه الارض التي اراها كسريري قد تلاشت في نظري : اذ وجدت اهي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لاساحل له ، ادركت في هذه الساعة أن هذه الاشياء كلها معها عظم حجمها

فهي كالصفر بالنسبة الى مالا يتناهى ، فعلمت ان ليس نيا أحاط به حسي ما يدفع عن فكري عطاشته

راقى جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فبل نحن على صفر حججنا اكرم معي منها ؛

تركحت حيرتي ههنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تزين كمرئس الانس وسألها فلم تجب او لم افهم حقيقتها ، وانثذيت الى هذه اليمامات الراقصة باعناقها فسألها فلم تجب او لم انهم هديها ، لكنني استأذنت هذه ونلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق بخالط منها الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الالسان ، وطال أنسي بهذه الخضرة المترنحات ، والورق المتفتيات . حتى كدت أفقه حديتها ، وأفسد تبيانها ، هذه ذكرتي بمعنى الحياة وأعادتي الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها الهدى الى ماأنشده

لم أجد غير نفسي يجيني عن نفسي بعد أن ساح حسي وفكري في هذه العوالم المحدودة . . إياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثني أني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف ألوف الالوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الإدراك الفكري وهو قار في ذرات
قلبية لا يحاط بها

أدهشي هذا الموقف الذي وصلت إليه ، وهذا المرأى الذي وقفت
عليه . حيرني من هذه الدررات أن تسمع صور السموات والارض وصور
أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم . وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة
التي تصدر عنها اما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال
هذه النتائج اذا اختل وضع الدررات

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستمر للفكر عنده المرأى إذ قصر اراه
أني عرفت شيئاً صغيراً جداً يسمع أشياء لا تخصي مع أنني انما أبني أن أعرف
ما هو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظام معناه جداً جداً ، ما هو
ذلك الشيء الذي وجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم منحركا
حساسا يحيط بالسموات والارض ، ويتغيره يفتدو هذا الجسم ترابا صامتا
صابراً تحت الاقدام ، ما هي تلك الحالة المخصوصة ، وما هو تغيرها وكيف
نظامها ، هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ، هل هو
يحتاج إلى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاما آخر متى تغير نظامه
هذا ، وإن كان تابعاً لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة تزول بأسرع
من لمح البصر بالنسبة إلى عمر غيرها على ما يتخلل وجودها من الاحتجابات ،
مخارات بمد محارات . ولكن تلوح خلالها آيات . إذ قد ملاً نارب
الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجة
والظاهر انما هو آثارها : فهذا النور الذي يملأ الفضاء لانعلم كنهه ،
وهذه الشمس وما حولها لاندرى كيف قامت ، قصارانا أناعرفنا سبحها

في هذا الفضاء ، لا يسندها عمد ، ولا يترتها سكون ، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بإحكام ، لا تخرج عن مستقراتها ، ولا تحيد عن مجاريها . ولكن ماهو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سؤا شيئا من ذلك بالجامزية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى ما نعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فاذاحللناها اتبيننا إلى عناصر قليل تدها لا تتحول ولا تتحلل هي الامهات ، ثم هي تنتهي إلى أم واحدة لانعرف من أمرها شيئا !

المشاهدة هي أكبر وسائلنا ، ولكن آله هذه المشاهدة عاجزة عن أن ترينا الاشياء كما هي ، ولو اقتصر الامر عليها لكانت دنومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها إلى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم - ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحد منا إلا كمصباح بسيط يشتمل ساعات وينظفيء ساعات ، وماهي إلا بحجم كرة مما يلعب بها اللاعبون . على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وتلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطاً وهو متركب ، وساكناً وهو متحرك ، وصغيراً وهو كبير ، حتى نصل إلى ماهو صنير جداً فلا نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية أيما مساعدة . . بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعا من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهوراً دهوراً . ولعلنا سنهتدي إلى مايرينا أصغر من تلك الصغائر ، ونحن في مثل هذه الهدايا العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لانجد ما يمنمنا من الظن بأننا :

مها استعنا بالآلات نبقي في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما
 هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على أبصارنا وآلاتنا معها بلغنا بها
 فما أكرمك يا عيني علي! أنت أنت كنت سبب ارشادي إلى حقيقتي
 إذ لم ترها لانني عرفت بالتجربة أنك مسكينة عاجزة لا ترين كل شيء ولا ترين
 شيئاً مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطرت أن أقيس وجودي على
 وجود غيري! لا جرم أن لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسدي
 الذي نشاهدته كما أن وراء النور حقائق مستترة ولا جرم أن حقيقتي هي
 سبب وجودي كما أن الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده
 ان الحقيقة العظمى التي هي باطنه من وراء الاشياء كلها . وظاهرة
 عليها كلها . هي حقيقة واجب الوجود ، حقيقة من لا بد لوجودنا من
 وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده ، هي
 حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها عنه صدرت ،
 وله العلم الازلي الابددي لان العلوم التي نعيها من فضله أنت ، وله
 الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت ، وله
 القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من
 لا مثال له في كمال وجوده . وعنه صدرت أمثلة الكمال في الوجودات
 الظاهرة . . هي حقيقة البارئ المصور الذي برأ حقيقة مثال كمال حي
 سميع بصير . يريد وجمل حجاب به هذا الهيكل البشري
 أصبحت لا ارتاب في أن الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها
 وباهدائها إلى كل شيء مما نعرفه . ولكن لشدة ظمورها الذي قديما دلت
 الامانة ، بما نحن ، فإذ نطأ . . معفة النفس . . آياتها العظمى . فسبحان الله

من عرف ربه فقد عرف نفسه . ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .
 تعرفت الآن . من أهر نفسي أو روحي أنها لا يعرف كتبها ولم يزدني
 جهلي بكتبها إلا إيماناً بتحقيقها الجليلة المستقلة عن الجسد . لأنني لم أعرف
 من أمر كل جزء من أجزاء الجسد إلا مشابهته لهذه الجمادات التي أماني
 وليس فيما أماني شيء يجمع فيه ما يجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما
 يفعله بعضهم أن أنسب هذه الخواص إلى المجموع المركب من هذه
 المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكيري بل جمع عنه كثيراً لتذكره
 النظام الشمسي وذهابه إلى أنه إنما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تتم هي به .
 فما نفسنا أو روحنا الأجازية النوع وسهرياًة الخصائص والمزايا ، وهي
 هي مؤلفة الهياكل وناظمتها . لا بدع في ذلك فالكوائن كلها من أصل لا يرى
 ولم تنفصل عنه ، ولا يكون الأصل تابعا للفرع . ولا ضرورة لتغير الأصل .
 إذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى
 فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا
 ضمنية ، والتجربة فيه هادئة أمينة ، ولا يصعب أيضا على من عرف آيات
 النفس التي تظهر في بعض الأشخاص لتعلم بها ان لها شؤوناً غريبة جدا
 فوق المهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحانه الله كم لها من
 انطلاق منه يظهر معه أن لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية
 نحن شاهدنا مع هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ،
 والباحثون المحققون شاهدوا أيضا او نقل اليهم ثقات كثيرون مجموعهم
 يدفع عن نفوسهم الريب ، وما علمنا أنهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق
 اسبابا جليلة ! غاية ما صنعوا أنهم وضعوا لبعض هذه الامور اسما وظن

القاصرون أن هذه الأسماء تحمل الأشكال - وتحكي حقيقته الخان :
وسمعنا سماعا لا يستطيع الريب منه البقاء أن أشخاصا يشفون أمراضا
معضلة بغير علاج ولم يقل لنا لماذا - الأبدان في تعابل هذا الأمر إلا أنه
شفاء بالوهم فبأعجاب ما هو هذا الوهم السابي ولماذا لا يشفي بأوه كل شخص
حالة النوم تنويمًا - منضاييسيا هي من الأدلة الصريحة في هذا الباب
على شدة غرابة أمر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخروج الحجب
الكثيفة - وقد القبود الحسية - وعمله الأعمال العظيمة - من غير حركة
يبدتها، أو واسطة يأتيها !

هذا حديث نفسي وخلصه ما ظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو
ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة - هو أقسام كثيرة - نصيبنا منه
عظيم ، وارتقاء نوعنا لولادة تديم ، هو الحي السميع البصير المريد
المستعد للظهور والاجتنان - المصنوع آية كبرى دالة على جامع الأكوان ،
وظهر لي أن خصائص الروح الشوق - ولو قات إن الروح هو الخلق
ذو الشوق لنا وجدت هذا غريباً في تعريفها - ولكل روح شوق يناسبها ،
وعلى نسبة شوقها تكون رتبها وصفها في عالمها الذي هي منه - وفي عالم
المثال والعيان الذي دفعها إليه شوقها الى الظهور

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة » من اعلى الارواح ،
وكان شوقها ازكى شوق واقدس ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطرها
ولكن هل الفاطر عز وجل يرى ؟ لعلها حارت زمنافي هذا الامر ؟ ولعلها
قالت لو كان يرى لكان محدودا وكف بدخل في حد من رأ الحدود ؟

ولعلنا عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصاً؟ أليس القصد من الرؤية العلم؛ ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص؟

هذا ما كانت نحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها السوري في بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها أتت من أن تجد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة في كل رؤية وكل سمع، لانها تريد أن ترى وتسمع الذي اليه طارت شوقاً. ولذلك رأينا « محمداً » صلى الله عليه وسلم قد حبيت اليه الخلوقة والانفراد ولا سيما اذ شارف الاربعين من سنه، وكان لغار « حراء » الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها وطيب شوقها

من ذا الذي يعلم خير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك الغار؟ ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله: رباه! رباه! كيف الوصول الى حضرة اتك! كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك؟ اليك أيها المولى من مزيد حبي: قياي وقعودي، وركوعي وسجودي، ومن مزيد شوقي: ذرف دموعي، وفرط ولوعي، رحماك رحماك ياربي! كبد تذوب وعين تسيل، وفكر يتدله، وأنت انت محتلوبي وانت أنت ذو الكرم والجود!

على هذا المثال كانت حاله، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به

بأنه (١) وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون محن الناس وتدهاتهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها، ولا يجدون الطمأنينة لديها ، هذه المحن والتدهات أفضى بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون. وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسمي وراء مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لا مضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولا رباب الاعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات المقتونين بالمحسوسات فعسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها وانتعاشهم وفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف همهم أمام حزن في طريقها كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة بركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان ، بالقوة العظمى . والحميقة الكبرى ، فلم تر بأسا بل لم تر إلا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لاحد له . كانت قد عرفت أن هذا الغار في « حراء » الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلباً قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية ، والشوق إلى الحضرات الربانية ، فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسال الله أن يملأه معالي

(١) ويفهم من القرآن أنه كان يفكر في ضلال الناس بالشرك والفساد في الارض ويطلب من الله الهداية إلى المخرج من ذلك (ووجدك ضالاً فهدى)

وبركات وقد أجاب الله تعالى بكرمه سؤالها وكتب « حراء » في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس ونحياتهم ومحامدهم . وكم قد ترجمت قرائح الشعراء عن احتراماتهم وتكريماتهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره البدور قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشهير أمطلع ذلك الضياء العظيم
سلام فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صحبت علم

**

لانت يتيمة عقد الوطن ففبك أضاء السراج المنير
بذكراك يلتي الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاء كبير

الفصل السابع عشر

(بين روح وروح)

أو

(بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أن روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك في « حراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح ما فيه كفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القاريء ينشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات

حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ولم يشد عنه الا قليل وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يجبون التباعد عن الروحيات ، ومن يؤمنون بها أحيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعوننا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أن حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكنني أظن أن محادثتنا اياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديده . وان كان ينكر العلاقة بين الروح الذي هو الانسان والأرواح الأخرى فليس لنا ما نتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيراً وليدقق في حديثها جيدا . وان كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تحديته بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذاكرته سهل

كان «محمد» ﷺ صادقا شديدا الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب « الامين » قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الالهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان يسى

الذي كان روحا من الله ، وكما عرفوا صدق تلاميذه وأنصاره الذين
حكوا حكايته وبشوا بشارته

هذا الصادق الامين رجع ذات يوم من «حراء» منتقم اللون ومر تجف
الصدر - يملوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المحبت الصابر ، فما
وقع نظر السيدة «خديجة» عليه حتى عرفت أن أمراً عظيماً قد ألمّ به .
خفق لأول وهلة قلبها - وساءلت بسررة البرق نفسها : ماذا أصاب
حبيبي ، ماخطف ذلك القلب الذي لا تزيده الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ؛
مابال ذلك الصدر المبسوط تانيه الرجفات ، ومابال ذلك الطرف القرير
نكاد تبادره العبرات ؛ رباه ؛ رباه ماذا أصاب حبيبي ؛ قل لي أيها الحبيب
ماذا أصابك ؛ حنانيك قل لي ؛ قل لي ؛

— دروني دروني

— لاصبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه عليّ

— بينا أنا في «حراء» اذ جاءني روح فقال لي اقرأ قلت له «ما أنا بقاريء»

فأحدني وغطني غطه (*) وقال لي « اقرأ » قلت « ما أنا بقاريء » ثم
غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنا بقاريء » . قال لي : (اقرأ باسم
ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم *

الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم)

— ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد مني ؟

— سمعته يقول أنا جبريل جئت أبلغك رسالة ربك

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب «حراء» بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المؤلف . فاذا صادف أحد الافراد شيئاً من هذا القمبل لا يقوى طبعه البشري لاول وهالة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخاطر في باله مع أنها من الامور التي تقع كثير أفسكيف الحان بالامور التي وقوعها نادر الى حد أن بعض الناس لا يصدق بوقوعها

انه ليخيل لي ان صاحب «حراء» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ» بخيل الينا أنه قال في نفسه : رباه ما هذا الذي أسمع ؛ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ؛ رباه ماذا يراد بي ، اني أعلم اني في بقضة لا في منام . وانني اسمع كلاما لارب فيه . وانني أحس بضاغطة يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل ! . رباه ان هذا أمر يدهش فكن اللهم عوني . وخذ بيدي . وثبت فؤادي . وقوني على مواجهته اذا عاودني .

نعم انه ليخيل لي ان المفاجأ بذلك الروح هكذا كان يتناجي في نفسه ويتناجي ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب الى خديجة فلما لتيها قال «ذروني ذروني» واختصر لها الحديث اختصاراً
ذثره «خديجة» وجعل العرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعد

ذلك . وقال له (يا أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكبر * وثيابك فطهر *
والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر)

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالخيرة وهذا ما أشرنا اليه هنا ولكن
مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربه فكان هذا الاسم الجليل حرياً ان
يكون دواء شافيا من تلك الخيرة وكافيا أن يفتح باب الهدى والطمأنينة
الروح «جبريل» يقول له أنا من تند ربك، جئت أبفك رسالته ،
جئت أتى عليك وحيا من تنده ، وفي هذا الوحي الذي جاء به مفتاح
لتلك المغالق التي اشرنا اليها آنفا التي كانت تقف أمامه دائما . في هذا
الوحي مبدأ ارشاد وتعريف له بربه خالق الانسان، في هذا الوحي اهاية
بفكره تناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ، في حقائق الوجود

كانت الخيرة تردفها الخيرة . وأما هذه الخيرة فان الهدى يردفها
لان العناية الآلهية ظهرت أتم ظهور، والعطاء الرباني سلم جليا لتلك اليد
التي كانت مرفوعة في «حراء» تلقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات
القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح
الانسانية الحالة في هذه الصور البشرية وذلك بجعل واحد من هذه
الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يرو التاريخ وقوع مثلها الا لقليلين : منهم النبي
ابراهيم ، والنبي موسى ، والنبي عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح «جبريل» (اقر بأسم ربك الذي خلق * خلق الانسان
من علق) فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق

الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة الباري المصور، وعظيم ضعف هذه الصورة البشرية لولا روح الله الممد لها

يقول له الروح «جبريل» (اقرأ وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) وهذا القول المجيد يصوره من النشأة الروحية في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية الانسان بواسطة قصة لا يؤبه لها لدى النظر . نعم بواسطة قصة تعني بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خصت العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص

وغريب في الامر أن المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب اليراعة بل كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم لا بدع . لا بدع . ان معنى ذلك هو تكريم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنه قادر أن يعلم من لدنه بغير ما عرفوا من الوسائط من شاء ماشاء إذا شاء . وأن يجعل غير القاريء قارئاً ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلها هذا الاسلوب

ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هذا السر الرباني تماماً ؟ نعم كان قلبها القوى خليقاً أن لا يفزع أمام هذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من ابوابه

الفصل الثامن عشر

عظم المنة باتساع المنة*

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها . ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثاله بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري . يهيب به الى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التي أخذت لأول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فانه دعي من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها المنر ، ويجب بحسب حدودها قاب السنن

إي لعمر الحق لاغزابة في روعة تنقض الظهر ، اذا حدث لمن فودي هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلا لتنزلات وحيه الأعلى

نعم ألت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح خديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولكن التأييد حاف به ، والإيناس صاف من حوله ، وناهيك أن في منزله

(* المنة الاولى بكسر الميم وهي معروفة والثانية بضمها وهي القوة قوة النفس

الذي اليه يثوب روحا شريفا كان الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره باديه بدء هو روح السيدة « خديجة »
 لم تكن هذه السيدة أقوى منه من بعلمها الكريم ولكن هو واجهته
 روائح الجلال مواجهة . فأخذته بين حيرة وشوق وخشبة تجزعن القيام
 بالوظيفة . وأما هي فسمعت بالامر جماعا . ووجدت للتفكر فيه مجالا .
 ولا يناس الرفيق مقالا

ولو بدعت امرأة بما بدعت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم
 وكان ينقصها ما حلاها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة
 وما أعطها من قوة التمييز في وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت
 مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الزريب . ولكن العناية الارلية
 التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الاعلى قد آتت العمل من اوله الى اخره
 وسقته على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات
 التي تساعد على استقبال امور عظيمة لانها خالقت الكور ووجه لذلك الرجل
 الذي سيأتيه أعظم الامور ويأتي به

تفكرت « خديجة » في هذا الامر وأخذت تسائل نفسها بنفسها
 وللأمل ههنا وجه وللخوف وجه : فالأمل يقول لها ان الامين لصادق
 وان روحه لركية قوية لاسلطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه انما
 بلغه باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير . وباختصاص من شاء
 بما شاء جدير ، وأي شيء يمنع رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا
 البيت بانزال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقا لاتضاهيه المشارق ،

يفيض النور على القبائل والشعوب ، أنت اللهم على هذا قادر إذا أردت ولا مانع لما أعطيت ! والوجل يقول لها ما هذه الحال التي أخذت ، حبيب قلبي فراغت ، اني لاخشى أن يكون أمراً جسمانياً بحتاً كما قد يمرض للأفراد . اني لأخاف أن يصبح هدفاً لرمي الإضداد . ولكن سرعان ماغلب الأمل على الوجل . والمنة على الضعف ، وشكأن ما تبذرت لها وجوه الأدلة على أن ما أتى عليها الكريم هو بريد خير عظيم ، ومقدمة نلاح عميم ، وكانت أدلتها على ذلك عناية ، ونقلية تقدمت العناية ، منها على الثانية

الفصل التاسع عشر

(الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على نفسي » قالت له « كلا والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المدوم . وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الامانة »

ان هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة ، هو نتيجة تفكير جميل قد أعطى الثمرة سريعا ، هذا الكلام الوجيه يؤلف استدلالا عقليا من أعظم الاستدلالات فانه قد أتى ساذجا نظيفا لاغبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه بواقف أمام الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوي بعض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظما ، ومن أجملها وقعا ، بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ، لا

يستغني كثير منها عن تشریح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا . فحينئذ يلوح لها انطواء الافادات الفزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة ، وتعلم من قريب أن الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء

(١)

يخرج من كلام هذه السيدة أن النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يجب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع ونحقق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لانعلمها من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها أن الله عز وجل مطلع على أعمالنا ومجاز عليها وأنه يجب منا أعمالا ويكره أخرى وأن الذي يحبه منا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي نمر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكافيء الله فاعل الخير بغير الخير؟ ان هذا على حسب تفكرها لا يكون

(٤)

ونتيجة قياسها أو أميستها أن هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير ، وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

الفصل العشرون

شرح مكنة السيرة فربما

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد . ولا تبلغ سفن العبارات شيئاً من سواحل التعريف به حق التعريف . وانما هي التمتع النفس على بث حبها له عز وجل وتمجيدها اياه ويزداد شوق النفوس الى الكمال ، وتمجدها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات . كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات . وأن حقيقته لهي فوق المجاز والاستعارات لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه . وغير صبور عن الاشارة الى وصفه . وايت شعري ألى يبلغ الواصفون صفة من كتبه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نقد صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ولذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأن رب العالمين غير حادث ولا تشببه الحوادث تعالى عن ذلك علواً كبيراً

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتتهم الارواح وكتبهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح ما درج عليه الناس من الاستعارة فأصبح هذا الامر عاماً لافرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضاً لان التفاهم في هذه الابواب لا يستغنى عنه ولا يمكن الا بالعبارة

إلى الله سبحانه يرجع كل شيء فهو أنشأ الانسان على هذا المثال ، وهو عنه ما قد عرفه إلى الآن ، و خلاصة ما عرفناه من طواهر التكوين أن البارئ المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان مميّزاً فلما أظهر الأشياء أمامه مبيدة على التفاضل ، وجعل تميز الأشياء بأصداها ، وأودع فيه ضدّين جعل عليهما مدار سيرته كماها في حياتهما الاستحسان وضده . وجعل مع الاستحسان الشوق والحب ، ومع ضده النفرة والبغض . واقتضى ناموس التضاد الذي عليه مدار تميز الانسان أن تتخالف أفراد هذا النوع في الاستحسان وضده ، فكثرت أسباب تخالفهم فنشأ بينهم الضدان المسمى أحدهم خيراً والآخر شراً . واحتاجوا إلى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم إلى معرفة هذه الجواذب والدوافع . ومن ثمة منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكماً وهل جائز أن يكون بعض أفراد الانسان حكماً والبارئ خبير حكيم ، كلا ، ثم كلا . بل ليست حكمة الانسان إلا من الله ، والله هو العليم الحكيم نعم . بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس

لعلم الله وعمله و ارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف ، الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف الانسان منها شكلاً من الاشكال لان الانسان انما يصنع ما يصنع للاحتياج والاستفادة وأما الذي أراد ظهور الأشياء بهذا التنوع فلم يرد هذا الحاجة أوجدوى تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمي ما يصنعه الانسان للفائدة عبثاً ولا نسمي عمل المستغني عن الفائدة عبثاً مع أننا لا نرى فائدة في عمله لانه لا استفناؤه وتقديسه ، ولا للمصنوع من مبدن ونبات وحيوان وغيرها

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمننا عن القول بأن له حكمة في كل شيء وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة في كشف خدور هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم إذا رجعنا النظر إلى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكير والتذكر، ذلك أن كل شيء منها فيد الانسان حكمة اذا تصدى لقراءته على صفحات الاعتبار، ان الانسان يرى اذا تأمل نظاما بديما في هذه الظاهرات ويرى له نصيبا في كل شيء منها فن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آلائه وكرمه يجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات. أما محبو الحكمة فيعمقون نظارهم ويتلمسون الاسرار في تشكيلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوضاع. ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت أنظارهم الى استجلاء فوائدها ثمة أيضاً لأنها كلها من الله، وما من الله لا يكون عبثا بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئا آخر، فكان الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكيم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل جلاله وتقدست أسماؤه

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها عبر . وتعلم لمن تذكرك . وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم له كل امرئ ويؤتاه كل احد في كتاب يكتب ، او خطاب يخطب ، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعداً أن ينال الحكمة نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء ايضا فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حاملي لواثها

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهدية العلية الربانية هدية الحكمة ، وقد رأى القاريء أنفا شيئا من حكمتها وجميل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا نشرح ذلك الاجمال . ونزيد المقام حضا من ذلك الجمال :
 (١) فهي رأت ان النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع وأنه سبحانه يحب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع . وحق ما رأت فان اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يعرف فاقترض ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان في ظهوره جسما وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتا عظيما فله أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي ، وأضحى مجمع أسرار ركز حقائق لا يماري فيها الا من جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجبا
 ومن المشاهد أن البارئ عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقى هذا النوع ويأخذ بيدها لتتقلب على ما أظهره بحكمته التي لانعلم

من أضدانها . اننا قد شاهدنا ماجرى ويجرى من الدفاع والجدال بين
جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه الى مشارق العلم ، فوجدنا
الغلبة للمثانية على الاولى وحسبك ان الانسان بعد ان كان كسائر الحيوان
لا يفقه غير حاجته الى عشب يصد به ألم جوعته . وماء يرد به ألم عطشته ،
أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب ، وبحسب من حر كاتها ما
هو أقل من ملح البصر حتى تسنى له بذلك ان يعرف متى يكون الخسوف
والكسوف ، دع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته ، ودع عنك توصله
الى استخدام ازوح السارى في هذه الظاهرات الدنيا نعني به الكهرباء
ودع عنك استفادته من الارواح العليا : واتيانه بواسطتها بالانباء
البعيدة والمحجوبة

(٢) ورأت السيدة «خديجة» أن البارئ عز وجل مطلع على اعمالنا
ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى . . . ومن تذكر ما حررناه
في مقدمة هذا الفصل يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معان
من كمال الله تعالى فهو سبحانه محيط بالوجودات كلها وقد جعل لها سننا
من جماتها أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض
ومعاونة بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضي بالتضاد ليميز به
الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده ، وما بعد عنها مكروه لديه .
هيات ! هيات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكرهيته لانه سبحانه
لاضد له ، ولكن هذا العجز لا يثنينا عن الالتمه ادبانه بحب ما ينفعنا ويكره
ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وانما خالق الضار
والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أمن، النظر بكل ماسلف هنا يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف. ومن يرزق هذا الروح لا يكون إلا سليم الفطرة، طيب القلب، غير متبيح لنقص حظ - ولا متعال بزيادة نصيب، فلا يكون إلا محبوباً تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لا يكفي فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة، وأهل الملل يقولون هذا القول باعتبار ما يلقي المرء في الحياة الثانية التي إنما تكون انيل الجزاء، وأما في هذه الحياة فهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول إن فاعل الخير يتلى في هذه الحياة بالشرور (١)

ونحن لا ينبغي أن ننسى أن مذهب هذه السيدة شوف لفعل الخير لأن المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الأخرى مما يزيد محبيه حبا فيه. واليه أذهب - وبه أثق، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا بعض تفصيل لما جاء مجملاً في حكمة السيدة «خديجة» ولم نسوغ الزيادة على هذا المقدار خشية تمب الرفيق القاريء ومنه يعلم رفيقنا أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو إلا روح خير وسلام، وفلاح ونعمة وإكرام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(١) الصواب أنه قد يتلى لها، ولا يكون فإيه للخير سبباً مباشراً لها

الفصل الحادي والعشرون

(الدليل النقلي)

اقتداء الناس بعضهم بيمض أمر قد أفنته طباعهم عظيم الالفة. وربما كان من سنخ غرائزهم، ومن مادة تصورهم، إذ رأينا ه عريقا في مرافقة الاجيال، والتنقل في الانسال، وموغلا في الرسوخ والاستقرار، والدوام والاستمرار، لا يرحزهم شيء منه، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا، وأضرَّ بهم كثيرا، فاما نفعه اياهم فلأن الاكبر سنا، والاكثر فهما، والاشد قوة، والاثزر تجربة، يجعلون المقتدين بهم يتدثون حيث انتهوا هم، ويمهدون لهم مالا يستطيعون أن يمهدوا لانفسهم، ولو بقي الطفل والغبى والضعيف والغرَّ خالين من طبيعة الاقتداء لراحت أكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات، ولا كثرت البدائع، ولا ارتقى التمدن، ولانما العمران، ولا سما النظام. وأما اضراره بهم فلانه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمنسدين، ووقف أحيانا بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور، وجملهم يحرمون ما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ما عرفوا من قبل، وان اصبح ما عرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نفعه واضراره، ووضع الموازين للدرجات فيه، لا قرابة بينه وبين موضوعنا، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الاخرين من جملة الأدلة

هو الذي حملنا أن نقدم هذه الكلمات في وصف عرأفته وبيان أن بعضه نافع كما وقع للسيدة «خديجة»

كان للسيدة «خديجة» ابن عم قد شبع من الاثوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ، ورضي بدين ابن مريم (عليه السلام) دينا ، وهو « ورقة بن نوفل » هذا الشيخ الجليل كان جديرا أن يكون اماما لخديجة تنخذ قوله حجة وهدية معتصما لان هناك وجوها كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور وانه لا يصدر عنه الا النصح لها . فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ايها ، فلوان ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قدسا الذي كان اكبرهمه حث الناس على التحاب وتقع بعضهم لبعض ، ونهيهم عن التشاحن وايداء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسوء التعالم التي تزكت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي الهمة جدا ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر الى علمه وأخذت معها بعلها ليقص هو نفسه على سمعه ما رأى كان ورقة بحسب ما قرأ وعرف مصدقا بأن ليس هذا الهيكل البشري الا مظهرا لشي يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح ظهورات غريبة في بعض الهياكل ، وانه توجد ارواح من شأنها الاجتياز بين الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ، صنف منها يجب جذبه الى سبل التكامل ، وصنف منها يجب بقاءه في

حضيض البهيمية . يقال في العربية للاول ملائكة وللثاني شياطين
 كان مصدقا بكل هذا ومؤمنا أيضا بان بعض الارواح الذين هم
 الملائكة يختصهم الفاطر المصور بمزيد خصائص ويجعلهم واميس أي وسطاء
 الوحي الأعلى للدين يرند سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جدا
 كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح اليهم وعرف أنه يقوم
 انبياء كذبة وانبياء صادقون وأن لهؤلاء وهؤلاء علامات . فنحن لما سمعنا
 ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهلا تصديقه
 بقدسية الروح الذي أتى محمدا (صلى الله عليه وسلم) لان يوحنا الرسولي
 يقول في رسالته الاولى « أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا
 الارواح هل هي من الله لان انبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم .
 بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في
 الجسد فهو من الله . وكل روح لا يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد
 فليس من الله » ولكن الذي خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأينا أمرا
 واقعا فان ورقة بعد أن سألت بعلى ابنة عمه بضع مسائل قال له هذا هو
 ناموس موسى أي الروح الذي جاءه والظاهر أنه لم يقل هذا القول ولم
 يصدق هذا التصديق الا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي
 وظهرت له العلام الدالة على أن الروح من الله على حسب ما تعلم من الكتب
 نحن لا ندعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة
 الامتحان التي أشار بها ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك العهد
 بالنسبة الى زماننا هذا كان لا يجهل هذا التفسير . وكذلك لا ندعي العلم
 بتفسير قول موسى لبني اسرائيل « ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من

اخوتكم ؛ ولا تفسير الاصحاح الثاني والاربعين من « أشعيا » ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعيا أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلم ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية . وهذا نص ما في أشعيا :

« ١ هوذا تبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قسبة مرضوضه لا يقصف رقبته خامدة لا يظني . الى الامان يخرج الحق لا بكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتتفطر الجزائر شريعته * هكذا يقول الرب خافى السموات وناثرها . باسط الارض وتأنجها . معطى الشعب تليها اسمه والساكنين فيها روحاً ٦ أنا الرب قد دعوتك بالر . فامسك بيدك . واحفظك واجعلك عهداً للشعب ونورا للامم ٧ اتفتح عون العمي . لتخرج من الجبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي . لا أعطيه لآخر . ولا نسبى لمنحوتات ؛ هوذا الأوايات قدأت . والحديثان أنا مخبر بها . قبل أن تابت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب أغنية جديدة . تسبيحه من أقصى الارض . أيها المنحدرون في البحر وملؤه (؟) والجزائر وسكانها ١١ اترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قي دار . اتترنم سكان سلمع من رءوس الجبال ليتهفوا ١٢ ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر »

قد قلت وأعيد قولي اني لا ادعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت آتفا من قول موسى واشعيا ما يشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى وأشعيا ما فهمت لا يجدي أسفا على ندم اصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذى حجاج ومناظرة إن أنا ههنا الا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ما وصلت اليه من النقول وههنا مسألة جلية لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القاريء وهي أن الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو بواسطة غيرها هذا المعنى كان بنو إسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون وتبتديء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبأ بأنه سيكون طوفان ويموت كل من على وجه الارض وهدى الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم ترقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم (*) وكان ينزل عليه روحا من عنده وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه أخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يعدمن الكثرة فولدت له إسماعيل ثم انبأ أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

(*) ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن طابر بن شالح
بن أرفكشاد بن سام بن نوح (كذا في سفر التكوين)

وطول هذا العقم فولدت له اسحاق، وانبيء أن نسل اسحاق سيكون كثيراً أيضاً. وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها فنزل على هاجر الروح وقال لها لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية برية فاران التي قال عنها موسى ان الله سبحانه تلاً لا فيها

وتأخذ كتب بني اسرائيل بعد ذلك بسر أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجيء اليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشهيرة . هذا أيضاً كان يذأ وينزل عليه الروح وهذا قال لقومه « ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب الحكيم من أخوتكم » وأسس موسى لبني اسرائيل ملكا على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسلمان وتعاضم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطواريء حتى زال . ولم يخل زمان من أزمنة ملوكهم وبعدها من نبي أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيراً على مريم أم عيسى وبشرها بانه يكون لها ولد من غير أن يمسا بشراً . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبيا أيضاً ولكن قومه كذبوه ولم يصدقوه إلا قليل . وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا يندرونهم زوال الملك اذا ظلوا على الفساد

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم مصدقون بتلها ،
أو يصدقون بأشياء هم مكذبون بتلها . هذا أمر وقع كثيراً ويقع دائماً أمام
أعيننا وأسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص ، وما هو
الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل في التصديق
والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبهجائب صنع الله ، وتفذت
بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناهي الله لعبدته موسى ، لا ينبغي
له أن ينكر قدرة الله في إخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعلى . ولا
يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن
آمن بهجائب موسى وعيسى ابني اسحاق ونزول روح الله عليهما لا ينبغي
له أن يسبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والغرائب الموسوية
والعيسوية ، وأما الذين لا يصدقون بهذي ولا تلك ، ولا يحكمون إلا الحس
والعقل ، فهؤلاء أمضي بهم إلى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أننا لن نعدم في
خزائنها كثيراً مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها
فإن قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس
هذا سبب إخبار من روح كما تقولون ، قلت لهم إذا توافقنا في ثبوت الاصل
فلا ضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسماؤها

وإن قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد نراهم في أزمئتنا هذه من
هذا القبيل وبين من تحدثوننا عنهم ؟ قلت لهم إن هذا الفرق ظاهر لأن
الاختصاص كله من الله فهو يعطي انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية

ويجمله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ويعطي انسانا آخر . مثلا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجمله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم . فالاول يقول أنا نبي أو أنارسل ويظهر الله صدقه فما يقول ، واثاني لا يستطيع أن يقول هذا وإن قاله لا يظهر قوله حقا . فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يبدوها الا خلاص الى الله والادب مع مجالي أمره . ومظاهر سره ؟

لقد كان ورقة على ما ظهر لنا شديد الاخلاص . توغلا في علم الروح ومعرفة النواميس الاسية وأخبارها ؛ وكان على نور فراسة من ربه وسرته استطلاع . فلما سمع هذا النبأ الجديد تقرس بصاحبه وتذكر ما نقل عن الانبياء وأصحاب النواميس من قبل . وتذكر قول موسى انومه بنى إسحاق « سيقم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فأنال له هذا هو الناموس الذي نزل على موسى

ثم تذكر انذاء الناس للانبياء مع قول اشعيا « انرفع البركة صوتها ، الدير الى سكنها قيذار » وقيذار هو ابن اسماعيل . وقوله « انترخم سكان سالع » وسالع او سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال العربية فلاح له أن قريشا - منضطر هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له « ليتني فيها جدنا - أي شابا - اذ يخرجك قومك »

وبعد برهنة قليلة توفي ورقة . أما « خديجة » فاستمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك وأضافت دلوه الى ما قد عرفته هي بدلالة عقابها وتجربتها فأصبح إيمانها بنبوة بملها ورسالته الى الناس اثبت من الرواسي

الفصل الثاني والعشرون

(الايمان والآيات وخورق العادات)

قال بعض الناس في تلك الايام لا تجب اذا آمنت «خديجة» ببعلمها فان رابطة الزوجية تستدتي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد آتى هؤلاء الفائلين بما يعارض مزاعمهم اذ طفق بعض من سمع هذا النبأ يؤمن به ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يحتدوا أسبابا أخرى للايمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوعه ، ارتجت له مكة وما حولها ، وانقسمت الافكار ، وتباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة ، اذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نقر منهم :

« لقد عرفنا محمداً طول هذه السنين فما عرفنا الكذب صاحبا له ، ولا عرفناه صاحبا للخداع ، وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئا . أتانا يخبرنا بأمر يشبه ما نسمعه عن أمر موسى نبي اسرائيل ولم يكن أمر موسى الا نافعاً لقومه فامل الله سبحانه يريد أن يهدي الينا نفعاً بواسطة هذا الرجل الصادق الامين منا »
قالوا :

« يقول صاحبنا إن روحاً أتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شيء من

هذا يبعد عن العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية
الابدية ووقفه العارف أن هذا بحر لا حد له . ويقول انه أمر بتبليغ الناس
هذا الوحي وما سيتلوه»

قالوا:

« ان هذه الدعوى عظيمة فان كان ما ادعاه حقاً كان من العار العظيم
والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا تز وجل الذي اهدى الينا العقل من
قبل وهو يعزز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها، وربما
كانت من نوع أدلى، وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه
العقل طعم الرشد والمعرفة ويأتيه بروائح ما يهب الفاطر جل وعلا من
صنوف المعارف . وان كان ما ادعاه غير حق فان حبله سيكون قصيراً لان
لدينا نقولاً ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره»

وقال نفر:

« لماذا يدعي الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة؟ هل
فقد عقله؟ كلا فاننا لانزال نرى صحته واعتداله على أتمهما، هل تغيرت أخلاقه؟
كلا فان من الاخلاق ما يرسخ مع كثرة الاعوام وقل ان يبيض الصادق
مائناً . كلا بل الامر جد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصرآ من
قوة ساقته بعد أن عاش أربعين سنة - الى الاتيان بهذا الامر الغريب
الصعب عليه ، وان الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعي
من لدنه ، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التي تنزلت الينا فضلاً
من ربنا ورحمة ، إنا به مؤمنون !»

كان في مقدمة هذا النفر أبو بكر ذلك الرجل الذي لم يعرف الى ذلك الوقت بعبء قوميه وليت شعري لماذا تجول الضنون وتحوم في تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذي رسمنا صورته من تفكيراتهم هو المطابق لحكمة المعتدلين

القائل ان «خديجة» إنما آمنت بعبائها لانه بعلمها هو في سعة من ظنه هذا اذا شاء. ولكن بما مهدنا له من المثل بإيمان أبي بكر تمنى أن يكون انتفع بمعرفة أن طريقة ايمان «خديجة» كانت أعلى مما يظن

ان الذي آمن به أبو بكر ثم ميثاق ثم ألوف غيره لا يجوز للعاقل المنصف ان يحرم زوجته العاقلة من شرف الطريقة التي آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات

ان ظنون الناس تكون على حسب اخلاقهم وطبائعهم وتصوراتهم فالدين يصرون على ادعاء أن السيدة «خديجة» لم تؤمن بهدا الروح الجديد الا لان صاحبه هو بعلمهم إما جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على شيء يستعيد العاقل بالله من تفاهته وهو القسم الردي منها . وإمامهم محبوبون على العناد وإمامهم مستمعون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات نحن لا نسوغ لافتناسنا أن نعيب أحدا ممن كان حظهم قليلا من علم اخلاق الناس ولا ندعي أننا نستطيع بالكلمات القليلة التي نفوها الآن مساعدة واذن من الصدد أن نودع في أفكارهم علما جديدا واسما، ولكننا نستطيع أن نذكرهم بان أخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة، بل منها ما هو في أسفل السفلى ومنها ما هو في أعلى العلى، ومن الناس من يغلب عليهم من الصدق والاخلاص ما يملك قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع

والرياء ، وعن الارتباب بالامور التي ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازليات اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كل ما فيه تمجيد اسم الفطر جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نقول لهم ان سيدنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل كما تشهد سيرتها . ومتى ترحح هؤلاء عن مركزه في علم الاخلاق سهل عليهم أن يشتركو معنا في معرفة انه ليس يحكموا ما على « خديجة » باخرمان من الايمان الصحيح المبني على أسباب صحيحة لا على كونه بعلمها

وأما المحبولون على العناد . والغرور والاعجاب ، فلا نعلمهم بسماع أقوالنا اذ ربما أتت ثقيلة عليهم ، ولا نتعب انفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتي علينا ثقيلة . فهم دينهم فيما توقعهم فيه جبلتهم ولي ديني فيما يمشي معه قلبي وبقيت لي كلمة مع الذي يستعظم تصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . إن هذا مذكور في نظري والتفاهم بيني وبينه سهل لاني لا أطلب ان يترك ما بيده من النظريات بل أوشي معه في الحديث وهي في يده فنبليغ معه غاية حسنة تصلح ان تكون ملتقى لنا مهما نشعبت حولها آراء اخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك يا صاحبي ان الذي يطالبه غيره بالتصديق له أن يطالب هو بالدلة والآيات ، ولكن اذا سمعت بمصدق ولم تسمع قصة طالبه للدليل والآية فلا تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من اقرب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين

أنت تعرف أن أبا بكر وامثاله ممن صدقوا محمدا (صلى الله عليه وسلم)

لم يكن لهم آباء سبقوهم في تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ،
وتعرف انهم كان لهم حلوم راقية راتمة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظن
انهم صدقوا بغير آيات بينات، وأدلة ساطعات ،

المشارب في الاستدلال مختلفة وأخشى ان يكون مشربك فيه
كشرب الذين لا يمدون الاية الا الامر الخارق للمادة ولذا رأيت أن
لا أودع هذا المقام من غير أن أحادثك بالآيات والخوارق بعد أن
أسلفت طريقة « خديجة » على النحوين لتعلم كيف يمكن أن يكون إيمان
كل مؤمن بمحمد (عليه الصلاة والسلام)

اذا وقع شيء خارق للمادة لا يستطيع أحد حينئذ أن ينكر انه آية
عظمى ولكن ماهي المادة وهل يمكن أن تخرق (أي تخالف) وهل
وقع شيء من هذا ؟

ينون بالمادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهم عنها بسنة الله تعالى
في الكوائن. والذين بحثوا في امكان خرق المادة لم يفرقوا بين شيء وشيء .
بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم .
والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا في الامثلة التي أوردوها من
صور هذه الخوارق الا شيئا . يرا جدا لا يصلح ان يلتفت اليه خصومهم
فضلا عن أن تكون به قناعتهم

ان الله عز وجل سننا في كل موجود ، أو نقول ان لكل موجود .
عادة وطبيعة ، والشمس مثلا من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون .
بالخوارق يمكن أن تصير هذه الشمس برغوثا وتبقى هذه الارض على .
حالتها ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بغير نور ويحيون هذه
الحياة عينها متممين بحداثق وفواكه ، ولحوم وشحوم ، ومياه جارية ، وأزهار

زاهية وصيف وشتاء وربيع وخريف . . . الى آخره . . . الى آخره ٢٢
أنا لا أعرف ماذا يقولون ولكنني مع إيماني كما يمانهم أو أكثر بظلم
قدرة الله تعالى يجدوني اذا قالوا في هذه المسألة « نعم » مفارقا لهم وقائلا
اذا تغيرت سنة الله تعالى في الشمس فصارت هي برغوثا تتغير سنته
في أيضاً فأصير أنا غير إنسان وغير باحث عن الخوارق

الذي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع
الملل لا يقف أمام نفخة من روح الله الحكيم اذا أراد عز وجل اعلان
الغيرة على حكمته وسننه، ويفهم أيضاً أن الدين الذي هو من أكبر هدايا
العناية الازلية لا يتوقف عليها إذ لو توقف عليها وكان لا بد في ظهور صدق
المأمور بتبليغه من ظهور خارقة لما تيسر تصديق أحد لأن كل واحد حينئذ
يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله وناظم الكون سبحانه لم يشأ
الى الآن نثره على ما بهواه المقترحون

الاقتراحات لاحد لها ولا عد ولا نظام هذا يقترح مثلاً أن تصير
الشمس برغوثاً، وآخر يقترح أن يصير المشتري عصفوراً، وآخر يقترح
أن يكون الريح (طرطوراً) وآخر يقترح أن يصير القمر قريبا، وآخر
يقترح أن يكون عطارد عطاراً، وآخر يقترح أن تكون الزهرة زهرة
لا تذبل أبداً، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية،
وآخر يقترح أن يصير البحر كله برأ أو البر كله بحراً والناس كلهم سمكات
مؤمنات مصليات صائمات، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهباً،
وتثبت عليه أشجار التفاح والليمون، والاعناب والزيتون، وآخر يقترح
أن يصير الوقت كله ليلاً وتجبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك

وأخر يقترح أن يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة ... الى آخره ... الى آخره ...

نعم إن مبدع منظومات الكون لم يشأ إلى الآن نثرها ولا نستطيع أن نقول انه ينثرها على حسب الاقتراحات لتأييد الرسل فامعنى مباحثنا معشر البشر بأنه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بعد إيماننا بعدم تحديد قدرته وبعد سماعنا وحيه يرشدنا بهد السكلام العالى (فلن نجد لسنة الله تبديلا ولن نجد لسنة الله تحويلا) بعد تقرير هذا أقول إن البشر لا يستطيعون أن يعرفوا كل سنن

لله تعالى أو كل عادات الاشياء وطبائنها بل لا يستطيعون أن يعرفوا جميع سرار كائن من السكائنات وجميع طبائعه بالتمام ثم هم لا يعرفون أيضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمدحه بصنوف الهدايات، وأنه قد يشاء اعلان آياته لاظهار عنايته به فيرى به شيئا مثلا على خلاف ماتعه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على تخلف المعروف من عاداتها اثر المنظومات ومن أمثلة ذلك أن النار شأنها الاحراق وقد تقتضي سنته تعالى لاعلاء معارف الانسان وهداياته أن يريه النار غير محرقة لسبب تتعلق القدرة باخفائه ان مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لان من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة وبديع الصنعة واحتجاب الحكمة، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقارىء أنا مؤيدون الآيات لا منكرون لها . وقصارى ما نقول ان الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المقترحون ، ويظن الظانون ، ويخترع المخترعون ، واما يؤيده الله تعالى بآيات تنشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول إن هذه الآيات فيها

تحويل لسنة الله تعالى أو عادة الاشياء وطبائعها اذ لا تبدل لسنته سبحانه وانما فيها موعنة ربانية نعرفها بآثارها

وربما كرهنا التعمير بالحوارق الذي اصطلح عليه المدونون وان كانت المناقشة على الالفاظ بغيضة الينا وبعيدة عن رأينا . ونحب التعمير بالآيات (كما عبر القرآن الحكيم) وبالله ما أكثر الآيات ! على أن ما أتى به هذا المختار هو فضل رباني وأمر روحاني

لقد أنبتة الله نباتا حسنا . وشمله بالعناية منذ كان في الصبا ثم الشباب ، وهو غير شائن ذلك الالهاب ، حتى دخل الكهولة وتناق الى التكمل ، وفي هذه السن بدأه بتحبيب العزلة وتفرغ الفكر من الصور الفواني ليشرق فيه الجلال الذي لا يفنى ، ثم أعلن لروحه روحا من لدنه كما منح هذا من قبله رجالا كثيرين من المصطفين كبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى . ومن الآيات أن هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجده طلب منا أن نعبده من دون الله وإنما قال لنا أنا عبد الله جئتكم ببلاغ من عنده انه وحده له الحكم ، وانه وحده البه المرجع والمآب ، ولو قال لنا أنا الحكم لوجدنا مقترحين عليه أن يجعلنا خالدين ، واذا لوجدناه عاجزاً الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لانستطيع عدّها : جاءنا بالعلوم وهو أمي ، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد ، ورفع الله له من الذكر ما لم يرفع لثله ، وجعل هديه باقيا ، وعودته عاليا ، وروح تأييده ساريا ، ولذا ليس اليوم بنا من تهجب حين نسمع ايمانا أقرب الناس منه واعرفهم به بل نحن بخديجة وأبي بكر مقتدون ، ولربنا على هذه العناية والآيات شاكرون ، وبوحي الله لهذا المصطفى مؤمنون

الفصل الثالث والعشرون

﴿ إعلان الدعوة ، واحتمال الاذى ، والثبات ﴾

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عند ما ذكرناه الى الان من سيرتها بل هي كالينابيع الثرور لاتفيض . والآن يشرف القارىء معنا على مجلى من أعظم المجلى لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لانجده في كل عصر الا في صحائف أفراد ندرتهم بين بني آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجاره ، وكثرة فوائدهم أعظم من قطرات الغيث

لقد مر على بني آدم ألوف من الاعوام وفي كل عصر وجد منهم ألوف الالوف ومن كل هذا العدد العظيم لانعرف مائة امرأة ثبتن في سبيل الحق مع شدة الممارضة ثبات « خديجة » أما ثبات بعلمه الكريم فلا ينبغي أن نقيس به بمد ما قدمناه ثبات أحد ، فانا قد وصلنا في الفصول السابقة الى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحي الالهي آمراً اياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيماً جداً منذ أتاه هذا الوحي . وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الأعظم ، والمصطفى الأكبر ، فلذلك لانرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرا ثم أمر أن يجهر بالامر فلم يجد الى جانبه زوجة تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى ، بل وجد قرينه صالحه القلب للوقوف

معه بالصبر والسكينة أمام المعارضين والمعارضات وما أشد ما كان أمام هذا الداعي الى غير ما عرف القوم: وما أحوج هذه الحالة الى قلوب كلما كبر المعاندون كيذا تقول « الله أكبر » !

الله أكبر ، كان المعاندون افرادا وجماعات قد امتلكت الالفة والعزة نفوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من أفئدتهم الندوة فأصبحت نسائم الهدى تزججها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها

قريش وما قريش ؟ ! قبيلة ترى لنفسها السبق بكل فضيلة ، والشرف على كل فضيلة ، لها أنوف شاحخة كأنها تطاول السماء ، وأعناق متلعة كأنها تصيد كل ليلاء ، تماد كل قوم بالنجباء فتكثرهم ، وتفاخر من تشاء بالعضاء فتعزهم ، مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعبيراً

هذه القبيلة التي حالها ما وصفنا من قوة الشكيمة وشدة الالباء ومزيد التعالي كانت قد أصيبت من الاقتداء بمضرته اذ كانت بمض العقائد التي صادقتها في موردها ومصدرها في البلاد المجاورة قد التصقت بعقولها حتى أصبحت ترى التصدي لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها، وانتهى كالحرماتها هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء ما يبهر الناظرين ولكن قد تراكت على أفكارها سحائب من آثار التقليد حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتى رأيناها تدرج مع البلداء في مدرج واحد من تأليه صورصاء عمياء بكماء جامدة قد صنعتها الايدي، فقامت تحسب أن هذه الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق الأعظم وتشفع ، وراحت تمان أن لهذه الصور مجداً، وتستحق شكراً وحمداً ، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لآلهتها من ذبح القرابين ، ونذر النذور ، وتوجه

القلوب ، وإخبات الصدور ، وتعلق القلوب

نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت الانفس فيها لا تنبسط
لشيء انبساطها لتمجيد تلك الالهة ولا تنقبض لشيء انقباضها للظلم فيها
أو النقص من تكريمها

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذرا وادعيا
الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وكانت قريش تعرف هذا الاسم الجليل
الدال في هذه اللغة على واجب الوجود موجد السموات والارض ولكن
لم تكن تعرف ما ينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه الكلمة
من الكمال والبعد عن مشابهة الخوادث ، وقد جرها الجهل بالله تعالى
وسننه وآياته الى ماجر كثيرا من الامم اليه من جهل كثير من الحقائق .
واني ما أشبه نتائج الجهل به عز وجل الا بسلسلة طويلة يستدرج بها ذلك
الجاهل الى أسوأ النهايات اذا لم تتداركه الاسباب من غناية الرؤوف
الرحيم جلت آلاؤه ، وتعالى أسماؤه

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة - سلسلة الجهل - يصل بها
الى مستقر لا تغنيها فيه الرفعة على أمثالها ممن ضرب الجهل خيامه عند
خيامهم ، ولا تجديها القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك .
كاد الاتسكال على الاصنام يمفي كل آثار الفطرة منها ، ويطمس كل رسوم
الذكاء ، ويذهب بما تركه فيها من المحاسن بعض فضلاء الاسلاف قبل
عهدهم بهذه الالهة التي فتنوا بها . أصبحت لا تعي ما فضل الله ، وما
رحمة الله ، وما غناية الله ، وغدت بعيدة عن معرفة ما الروح ، وما
خصائص الروح ، وما عبادة الروح للآحد المحيط بكل شيء ، وراحت

معرضة عن العلم بمراقبي الامم واتساع دائرتها ، وعن معرفة وظيفتها من
تتميم ارادة الفاطر باظهار البدائع على يدها ، وظهور آلائه وآثار عنايته
عليها ، وأصبح قصارى ما يجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيئين
يشيلان في ميزان العقلاء ، شيء يرضي به وهمه في التزلف الى تلك الحجارة
التي اتخذها آلهة ، وشيء يرضي به وهمه في الكبرياء ، ولم يدر مفرورهم
أن التزلف الى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلي ، وأن تلك
الكبرياء لا تجديهم شيئاً اذا دهمهم داهم خارجي ، كما وقع لهم يوم «أبرهة»
هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته
اصبحت قيلاً لمداركهم قد احكمت حلقاته فهم لا يستطيعون اذام موجودا
أن يبرحوا ما هم فيه لان جاذبا منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحركوا
. هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية الباري أن تظهر آية عظيمة في
قدها ونخايس تلك الفطر من قيدها . واقتضت الحكمة البالغة والتدبير
الاسمى أن يكون ذلك بواسطة من أنفسهم . وأن تجري الهداية على سننها
في الاولين فيلاقي الوسطة ما يلاقي ويصبر ما يصبر ويتم الله ما يريد .
ولذلك لما قام هذا المصطفى يمان هذه الدعوة لقي تلك الصوادم ، وما تلك
الصوادم ؟ جهل وغرور وكبرياء وعتو وقسوة وفضاظة وتمصب للمألوف
ونفرة من الوعظ والنصح وإباء امام الانذار وطغيان وبهتان وعدوان
وإقدام على قتل الذي يذكر آلهم بما يكرهون
أي قلب لولا التأييد الرباني مجدالى الصبر سيدا امام هذه الصوادم ؟
وأي ناصية لولا العون الرحماني تظهر للقاء هذه الصوادم ، وأي امرأة
غير « خديجة » ترى بعلها في جوف هذه الغوائل ثم لاتزيدة الاحمداً على

القيام بوظيفته وإيناساً بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود
 أودى (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الأذى لما أسهمم الدعوة ،
 تكاثر المفتاتون عليه والمفترون ، وظاهر سوادهم الجاحدون والممترون
 من أقرب اقربائه ، ظهر الجافون المتباعدون عنه ، والهازون به والساخرون
 منه ، دع عنك البعداء ، ومن اكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون
 هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الآلى هو شر جاء به الينا ، وقد
 حشروا ما عرفوه من العيوب وأرادوا عزوها اليه لينفروا الناس منه
 وينتموا الآلهتهم التي بدهم بجودها ، وكشف لهم دوار جودها ، وأيسر
 ما فعلوه سبهم إياه والهزه به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يجافه
 فعلوا كل هذا وهو متدرج بالصبر ، مثابر على الصدع بالامر ، وفي
 هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون
 الصبر من أجله ، وتهدى الى الاجيال الآتية اجمل صورة لثبات الجأش
 أمام الصعوبات

وياما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كماقبة صبر هذا الرسول الكريم
 فقد كانت العقبي ذلك الفوز العظيم الذي يقل في الدنيا من لم يسمع خبره
 ولنعم عقبي الصابرين

— خلاصة الدعوة —

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها فهذه أصولها :
 (١) العلم بأن لاشيء يستحق التأليه الا الله الخلاق العظيم الذي
 لا يشبه الحوادث ولا يشبه شيء منها

(٢) العلم بأن هذا الباريء المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانساني ومن عنايته به تحافه بصنوف الهدايات ومنها الهداية بواسطة وحي أعلى للرسل المصطفين .

(٣) العلم بأن هذا الداعي الجديد الى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء

(٤) العلم بأن الايمان بهذا الرسول يقتضي الاذعان والتسليم الى كل ما جاء به هذه أصول الدعوة التي كان مأموراً أن يبدأ بها الناس وهي ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » فن قالمهما طمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء الحمدية الذي يظل ماثلاً للملايين في يومنا هذا

والرسالة الحمدية لم تكن لقريش ولا للعرب خاصة بل هي للناس كافة ، ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذي تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عوناً للدعوة لا دوناً عليها

الفصل الرابع والعشرون

بمئة عشر سنين

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد ، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالاً ولم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان . كان الجاحدون في نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون في جنة من

الفرح بنعمة الله ورحمته - كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد ، والمؤمنون ينتظرون من مولا م إعلاء شأنه - كان الجاحدون حيارى في هذا الداعي فطوراً يسبونه وطوراً يهزؤون به ، وأحياناً يرجعون الى أنفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه ، فيجدونه بعيداً عن المين وسائر المغان التي كانوا يظنون ، وكان المؤمنون من يقينهم في حظ عظيم من الطمأنينة وانسراح الصدر وفرح الضمير - كان الجاحدون يرجعون الى تلك الحجارة فيشكون اليها المحمدين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأيد ذلك الرجل الذي لا يذكر آلهتهم الا بسوء ، وكان المؤمنون يرجعون الى من لا تدركه الابصار متوجهة اليه وجوههم ، مسادة اليه قلوبهم ، لا يتوكلون الا عليه ، ولا يأخذون الا بسنته - كان الجاحدون عكوفاً حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله سبحان الله عما يصفون ، تعالى الله علواً كبيراً - كان الجاحدون كثيري النعم والههم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لاقوه من الاذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة : وذلة القلة عزة .

وفي أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جدا عند المؤمنين ولم يشمت الجاحدين في تلك الايام شي مثل مفادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترجع بينهم بالرغم منهم كان في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط الصنير تارة ترفع البصر الى مقرها الاقدس عند المحيط الاعظم فتحاول الطيران اليه وتارة تلقي به على هذا المحيط الذي أنست به فتظل مرفرفة عليه وجانحة الى العكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامي يمتنى بقاءه ،

جاذب من أمر الله وسنته يقضي بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير
هل عرف القاريء من هذا المودع العزيز ؟ ذلك كان شبح سيدتنا
« خديجة » فقف أيها القلم خاشعا ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة
لا تفتى ، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامية ، ولن
نجد لك أيها القلم شرفا بعد هذه السيرة الا اذا سرت بنقل التاريخ المحمدي

سبحان رب الكون هذا حكمه في الروح قد سيمت بهذا الواقع
مرآتها هذا الشخوص بها ترى زمنا وترجع للمحيط الواسع
لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها ما نقلناه
للقاريء والآن هي لدى المحيط الواسع فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذي
مرت به وترى أن تلك الكلمة التي قاست في سبيلها مع بعلمها الكريم
ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب
وأصبحت برور الارض وبجودها مملوءة كل هذه المصور الى يومنا هذا
بمن يقول من جميع اجناس البشر « لا إله الا الله محمد رسول الله » ؟

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات
وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة في أكثر
أقاليم الارض والحمد لله ، ولكن هل تتجلى اليوم تلك الروح الشريفة وترى
أن كل المؤمنين يعدون اليوم أولادها ؟ . فالسلام عليك يأم المؤمنين ،
سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة يأمamah

﴿ فهرس سيرة السيدة خديجة ﴾

صفحة	صفحة
عند البعثة (٣٩ حرية أهل مكة ،	٤ - (مقدمة تمهيدية أو اهداء السيرة)
٤٠ البعير والرق وحقوق النساء في مكة	٩ - (المقدمة) ١٠ العرب - أصولهم
٤١ - (الفصل الرابع - مقام النساء في قوم	وانسابهم ، ١٢ العرب البائدة ،
خديجة) ٤٢ وأد البنات - أسبابه ،	١٣ العرب ولد اسماعيل ،
٤٥ مشاركة نساء العرب لرجال في	١٤ العرب - اختلاطهم بالأمم ،
الأمر العامة ، ٤٦ النساء اللاتي	١٥ العرب - تاريخهم وعلم النسب
شابعن عليا (رض) ، ٤٧ خبر سودة	عندهم ١٧٦ العرب - حضارتهم قبل
الهمدانية مع معاوية ، ٤٨ خير بكرة	الاسلام. الغسانيون ، ١٩ ملوك كندة
الهلالية والزرقاء الهمدانية مع معاوية	٢٠ ملوك كندة وخبر امرئ القيس ،
٤٩ دارمية الحجونية » »	٢١ عدنان وقحطان أصلا العرب
٥٠ - الفصل الخامس - مقام خديجة عند	٢٢ عدنان سلالاته ونسب النبي (ص)
قومها) ٥١ النساء - ارتفاع شأنهن	٢٥ - (الفصل الأول - مكة وحالة
عند العرب ، ٥٢ مألوف وغير المألوف	قريش الاجتماعية عند البعثة)
٥٣ - (الفصل السادس - فضائل خديجة	٢٧ مكة وحكومة قريش فيها ،
والفضائل عند قومها) ٥٤ المعروف	٢٩ مكة حال قريش الحربية
والمنكر ميزانا الارتقاء عند العرب ،	وقصة أبرهه
٥٥ تربية ملككتي الكرم والشجاعة	٣١ - (الفصل الثاني - بيوتات قريش
عند العرب ، ٥٦ شجاعة العرب	وخصائصها) ٣٣ الندوة والاشناق
ويوم ذي قار ، ٥٧ أشعار في يوم	والفية والاعنة ، ٣٤ السفارة والايثار
ذو قار ، ٥٨ علوم العرب وحكمتهم	والاموال المحجرة ، ٣٥ حلف
٥٩ علوم العرب بالطب والادب ،	الفضول ونقص نظام قريش
٦٠ حكم العرب ومحاوراتها ، ٦١ العدل	٣٦ - (الفصل الثالث - ديانة أهل مكة

صفحة	صفحة
قبل تزوج خديجة) ٨٢، ٨٣ عناية الله تعالى بالعرب وبعد المطلب خاصة ، ٨٤ شرف عبد المطلب بالنبي ، ٨٥ تاريخ مولد النبي ، ٨٦ خبر رضاع النبي ومرضعته حليمة الهمدانية ، ٨٧ بركته عليها ٨٨ وفاة أم النبي ، ٨٩ كفاة أبي طالب للنبي ، ٩٠ تربيته (ص) ونشأته اللتان نشأ عليهما ، ٩٢ رؤية النبي لحرب الفجار	عند العرب ، ٦٢ أصول الفضائل عند العرب اعدتهم للاسلام ٦٢ - (الفصل السابع - جمال خديجة والجمال عند قومها) ٦٤ أفضل ألوان الحسان عند العرب ، ٦٥ استعداد العرب بؤس جمال الحلقة الى معرفة جمال الخاق ، ٦٦ ، ٦٧ وصف الجمال ٦٨ - (الفصل الثامن - ثراء خديجة والثراء عن قومها) ٦٩ قريش - استعدادها للاسلام ، ٧٠ قريش - حبها للمجد والثروة ، ٧١ قريش - أسواقها بمجامع العرب ، ٧٢ صادرات بلاد الحجاز و وارداتها ، ٧٣ حضارة قريش ، ٧٤ التجارة في الجاهلية وأصناف الأموال ، ٧٥ النفوس والابل في الجاهلية ، ٧٦ الرقيق والزرع والضرع في الجاهلية ، ٧٧ الثروة بناييعها متحدة في كل زمان
٩٣ - (الفصل الحادي عشر - الحب الشريف) ٩٤ الحب الشريف - طبيعة النفس ، ٩٥ محبة خديجة للنبي (ص) ومزايابه	٧٩ - (الفصل التاسع - زواج خديجة الأول) ٨٠ الاشارة الى حياة خديجة الجديدة
٩٦ - (الفصل الثاني عشر - تفاؤل هَذَا وقته) ، ٩٧ معرفة العرب بالنبوة	٨١ - (الفصل العاشر - محمد (صلم))
٩٨ - (الفصل الثالث عشر - الخواطر في قلب خديجة) ، ٩٩ أماني خديجة . وخواطرها في الزواج بمحمد ، ١٠٠ ضرر التقليد بالعادة ، ١٠١ خواطر المرأة النكاملة	١٠٢ - (الفصل الرابع عشر - الزواج)

صفحة	صفحة
١٤٣	١٠٤ طريقة خطبة خديجة النبي
والانبياء ، ١٤٤	١٠٥ - (الفصل الخامس عشر - بيت خديجة بعد الزواج)
ووقوعه ، ١٤٥	١٠٨ - (الفصل السادس عشر - العمل الروحي) (١١٠ ما نحن ؟ ، ١٤٦ - (الفصل الثاني والعشرون - الايمان والآيات وخوارق العادات)
على صدق نبوته ﷺ بعلم ورقة	١١٩ بحث في العمل الروحي
١٤٧	١٢٢ - (الفصل السابع عشر - بدء العمل الروحي)
١٤٨	١٢٨ - (الفصل الثامن عشر - عظم المنة باتساع المنة)
١٤٩	١٣٠ - (الفصل التاسع عشر - الدلالة العقلية على صدق الرسالة)
١٥٠	١٣٢ - (الفصل العشرون - شرح حكمة السيدة خديجة)
١٥١	١٣٨ - (الفصل الحادي والعشرون - الدليل النقلي على صدق محمد)
١٥٢	١٣٩ ورقة بن نوفل - ايمانه بالدليل ، ١٤٠ استدلاله بكتب العهد الجديد
١٥٣	١٤١ استدلاله على صدق محمد ، ١٤٢ بالعهد القديم على ذلك ، ١٤٣ قول النبي ﷺ بالنبوة ،
١٥٤	
١٥٥	
١٥٦	
١٥٧	
١٥٨	
١٥٩	
١٦٠	
١٦١	
١٦٢	
١٦٣	
١٦٤	

اطلب من مكتبة الميترا بمصر

تليفون رقم ١٥ - ٧٧ - ١٠٠٠

المطبوعات الآتية بأثمانها ماعدا للتجليد وأجرة البريد

قرش	قرش
١٥	تفسير القرآن الحكيم لكل جزء
٣٠	الجزء السابع منه
٣٠	الجزء الاول من تفسير ابن كثير
٣٠	والبغوي ورق جيد و٢٥ ورق عادي
٣٠	الجزء الثاني منه و٢٥ عادي
٣٥	الجزء الاول من المغني والشرح الكبير
٥	تفسير سورة الفاتحة طبعة رابعة
٢	المصر و٣ ناله
٥	رسالة التوحيد (طبعة رابعة)
٥	الاسلام والنصرانية و٨ ورق جيد
٢	اصلاح المحاكم الشرعية
٢٠	تاريخ الاستان الامام المنشآت
٢٠	التأبين والمراني
٣	الجرح والتعديل (للقاسمي)
٣	تاريخ الجهمية والمعتزلة (له)
٨	صفة الملوك لابي الفوار (لذهي)
٣٦	مدارج السالكين ٣ أجزاء لابر القمي
٣٠	الملم الشامخ مع الذيل (للمقبلي)
٣٠	شرح عقيدة السقاريني (جزآن)
١٠	هدى الرسول (مختصر من زاد المعاد)
٩٠	مفتاح الخطابة والوعظ
٤	مفتاح السنة
٨	مفتاح اللغة العربية من تطبيق على القواعد
٣٠	مجموعة الحديث ورق جيد و٢٥ عادي
٢٠	عجاز القرآن (للاستاذ ارفاعي)
١٥	آخر بقره ابو ورق عادي و٢٠ جيد
٢٧٠٠	مجموعة المنار (٢٧ مجلداً)
٥	ذكرى المولد النبوي
٢	مختصر ذكرى المولد
٥	المصلح والمقلد
٥	شبهات النصارى وحجج الاسلام
٥	الخلافة أو الامامة العظمى
٥	الوهايون والحجاز
١	المسلمون والتبطل
١٠	رسائل وفتاوى جديدة
٨	التوصل والوسيلة
٣	اغانة اللهفان في طلاق المضبان
١	الصوفية والفقراء
٢	القول السيدية في الاجتهاد والنقيد
٢	فتاوى في اصلاح المرأة
٢٥	دلائل الاعجاز . طبعة ثانية
٢٥	أسرار البلاغة
١٨	انجيل برنابا
٣	الصلب واتقاء (للكاتور صدق)
٣	نظرة في كتب العهد الجديد
١٦	صفى الكائنات (الاول والثاني)
٥	انتقاد مؤلفات جرجي زيدان
٢٥	حاضر العالم الاسلامي و٦٠ ورق عادي
٢	الاجتماع والافتراق في الحلف بالطلاق
٢	المسح على الخدين
١٠	مجموعة آيات في حق ملك العظم
٣	لوازم الامانة في جوانب الاعداد

(لشهي)

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

المتن (لار) لان

